ثانيا – الفاء :

أ- العاطفة :

١- "...نقيّضْ له شيطانا ؛ (ف)هو له قَرين" (٣٦).

٢- "...بيني وبينَك بُعْد المشرقين (ف) بئس القرين" (٣٨).

٣- "أ(ف)[١] أنت تُسمع الصُّمَّ...؟" (٤٠).

٤- "...ومَن كان في ضلال مبين؟(ف)إمّا نَذهَبَنّ بك..."(٤٠,٤١).

٥- "أو نُرِيَنّك الذي وعدناهم (ف)إنا عليهم مقتدرون" (٤٢).

٦- "...مقتدرون ؛ (ف)استمسك بالذي أُوحِي إليك..." (٤١، ٤٢).

٧- "ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون، وملئه؛(ف)قال : إني..."(٤٦).

٨- "...رسول ربّ العالمين؛(ف)لمّا جاءهم بآياتنا..."(٤٦,٤٧).

٩- "...أننا لَمُهتَدون (ف)لَمّا كشفنا..." (٤٩ ،٥٠).

١٠- "أ(ف)لا تُبصِرون؟" (٥١).[٢]

١١- "...و لا يكاد يُبين؟ (ف)لولا أُلقي عليه..." (٥٢,٥٣).

١٢- "...مقترنين(ف)استخَفّ قومه؛(ف)أطاعوه"(٥٣، ٥٤).

١٣- "إنهم كانوا قومًا فاسقين (ف)لمّا آسفونا[٣] أنتقمنا منهم؛ (ف)أغرقناهم أجمعين" (٥٤، ٥٥).

١٤- "...فأغرقناهم أجمعين؛ (ف)جعلناهم سَلَفًا..."(٥٥,٥٦).

١٥- " وإنه لَعِلْمٌ للساعة (ف) لا تمتَرُنّ بها..."(٦١).

---

(١) والتقدير : أتريد هدايتهم ، أو إسماعهم ؟ فأنت تُسمع الصّمّ .... و انظر : الحذف.

(٢) وانظر أمثلة الحذف.

(٣) علل البقاعي استعمال الفاء هنا باحتمال كون مدة محاورة موسي لقومه قبل الانتقام منهم قصيرة. نظم الدرر ١٧ /٤٥١.

١٦- "...تختلفون فيه؛ (ف)اتّقوا الله..." (٦٣).

١٧- " إن الله هو ربّي و ربّكم ؛ (ف)اعبدوه ..."(٦٤).

١٨- "...هذا صراط مستقيم (ف)اختلف الأحزاب...(ف)ويلٌ..." (٦٤ ،٦٥).

١٩- "أم أبرموا أمرًا؟ (ف)إنا مبرمون" (٧٩).

٢٠- "قل : إن كان للرحمن ولد (ف) أنا أول العابدين" (٨١).

٢١- "سبحان ربّ السموات والأرض...عمّا يصفون...(ف)ذرْهم يخوضوا ويلعبوا..." (٨٣,٨٢).

٢٢- "...ليقولُنّ : الله (ف)أني يُؤفَكون؟" (٨٧).

٢٣- "وقيله: ياربّ...(ف)اصفحْ عنهم[١]،وقل: سلامٌ ؛ (ف)سوف يعلمون". (٨٨ ،٨٩).

وما بعد الفاء هنا مترتب علي ما سبقها. فهو نتيجة[٢] لما سبقه، أو كأنه كذلك في بعض المرّات.

ب- الرابطة لجواب الشرط

١- "فإمّا نذهبَنّ بك (ف)إنا منهم منتقمون" (٤١).

٢- "قل : إن كان للرحمن ولدٌ (ف)أنا أول العابدين" (٨١).

ودور الفاء هنا قريب من دورها في المجموعة (أ). فإذا كان ما بعدها في تلك المجموعة

(١) ويقدّر أصل بناء الآية الأولي : وعنده علم قيله – عطفا علي "و عنده علم الساعة" في الآية ٨٥- ، أو نقدر بعدها : ويعلم قيلَه ؛ علي قراءة النصب ، أو يقدر الخبر للمبتدأ "قيل" علي قراءة الرفع ، وهو :مسموع ، أو عنده. تفسير القرطبي ٤٢٨/٨ ، ٤٢٩. وقراءة الرفع غير عشرية.

(٢) وانظر عن المثالين (٥ ،٧) نظم الدرر ٤٣٥/١٧ ،٤٤١. و في المثال الثاني قدر البقاعي كلاما بين الآيتين معتمدًا فيه علي سياقات القصة في غير سورتنا.يقول عن موقف فرعون وملئه من موسي : "ولما كانوا قد فعلوا من الردّ لرسالته – صلي الله عليه و سلم – والاستهزاء بها ما فعلته قريش – قال مسلّيًا للنبي- صلي الله عليه وسلم – ومهدّدًا لهم تسبيبًا عمّا تقديره : فقالوا له : ائتِ بآية ؛ فأتي بها..."فلمّا جاءهم بآياتنا"...".

نتيجة ؛ فإنه في مثالي هذه المجموعة علّة ، أو كالعلّة لما قبلها.[١]

ثالثًا – أو :

١- "أفأنت تُسمع الصّمّ (أو) تهدي العُمْى...؟" (٤٠).

٢- "فإمّا نذهبَنّ بك...(أو) نرِيَنّك..." (٤١ ، ٤٢).

٣- "فلولا أُلقِيَ عليه أسورة من ذهب (أو) جاء معه..."(٥٤).

جاءت (أو) هنا لتعيين أحد أمرين في المثالين ١ ،٢، وللتخيير في المثال الأخير. وفي المثال الثاني وقعت (أو) بديلا لـ (إمّا) الثانية.

رابعًا – حتَّى :

١- "بل متّعت هؤلاء، وآباءهم(حتّي) جاءهم الحقّ..."(٢٩).

٢- "وإنهم ليصدّونهم عن السبيل – ويحسبون أنهم مهتدون[٢] – (حتّى) إذا جاءنا..." (٣٧ ، ٣٨).

٣- "فذَرهم يخوضوا ويلعبوا (حتّي) يلاقوا يومهم..."(٨٣).

واستعملت (حتّي) هنا دالّة علي انتهاء الغاية ، كما هو شأنها. فالجمل التالية لها تمثل منتهَيَات لما حدّثت عنه سابقاتها.

(١) وانظر : النحو الوافي ٤ /٤٥٨ ، ٤٥٩ حيث يقرر أن الفاء تزاد للربط المحض بين الشرط والجواب ، وتدل علي التعليل. وقد استعملت للربط المعنوي لئلا تستقل إحداهما بمعناها عن الأخري ، وذلك بعد زوال الجزم الذي كان رابطا بينهما.وربما كان ما بعد الواو نتيجة ، علي بعض توجيهات معني الشرط في المثال الثاني.

(٢) يمكن اعتبار هذه الجملة (ويحسبون أنهم...) معترضة لعطف تإلتها علي ما قبلها ، و يصح ألاّ تكون كذلك ؛ فتعتبر حالية من المفعول ، و تقدر جملة مثل (يصدونهم) لتعطف عليها جملة (إذا جاءنا).

ثانيا – الربط بالشرط :

أ– منفردًا(١)

١– "و(لولا) أن يكون الناس...(لـ)جعلنا..."(٣٣).

٢– "ف(إمّا) نذهَبَنّ بك (ف)إنا منهم منتقمون" (٤١).

٣– "ف(لمّا) آسَفونا انتقمنا..." (٥٥).

٤– "و(لمّا) ضُرِب ابنُ مريم...(إذا) قومُك..."(٥٧).

٥– "و(لو)نشاء (لـ)جعلنا منكم ملائكة..."(٦٠).

٦– "و(لمّا) جاء عيسى بالبيّنات قال..." (٦٣).

٧– "قل : (إن) كان للرحمن ولد فأنا..." (٨١).

نلمح قدرًا من التوازن في استعمال أدوات الشرط ، جاء مترتبا علي وظائفها النحوية. فلقد استعملت (لولا – لو – أن) في سياقات احتمالية ، لم يتحقق فيها جواب الشرط. وهذا ما جاءت علي عكسه سياقات استعمال (لمّا) الحينية ، و(إمّا). وقد وردت هذه الأخيرة في سياق التهديد للمشركين فأكدت بزيادة (ما) فضلا عن تأكيد شرطها و جوابها معًا ، وتقوية العلاقة بينهما بالربط بالفاء. واستعملت اللام و(إذا) الفجائية لتلك الوظيفة في ثلاثة من الأمثلة.

ب– مسبوقا بغير الواو والفاء ، أو بما صاحب إحداهما :

١– "حتّي (إذا) جاءنا قال..." (٣٨).

٢– "ولـ(ئن) سألتهم : من خلقهم؛ليقولُنّ : الله..." (٨٧).

في المثال الأول تسبق (حتّي) المفيدة لانتهاء الغاية أداة الشرط، و تسبقها لام القسم في المثال الثاني. وإذا كان دور (إذا) في الربط لم ينتقص لوجود (حتّي) ، فإن عكس ذلك هو الصحيح بشأن (إن) في المثال الثاني. فالغالب أن يكون الجواب للقسم عند اجتماعه مع الشرط.

(١) يلاحظ أن الواو قبل أدوات الشرط في الأمثلة غالبا ما تكون استئنافية ، أو تشبه أن تكون كذلك .

ثالثًا – الربط بأداتي التعليل :

١- "وجعلها كلمة باقية في عقبه (لعلّ)هم يرجعون"(٢٨).

٢- "...ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات (لـ)يتّخذ بعضهم بعضًا سُخريًّا" (٣٢).

تفيد أداتا الربط هنا التعليل بما بعدهما لما سبقهما. علي أن أولاهما تفيد ترجّي حدوث ما بعدها ، وهو ما تخالف فيه اللام في الآية الثانية ؛ إذ ما بعدها يحدث مترتبا علي ما قبلها ؛ لنكون بصدد واقع.

(ج) الحذف

أوّلاً : مواضع الحذف[١]

١- (هذه –) حم ، أو :(اتلُ –) حم (١).

٢- أَ(نُهملُكم –)[٢] فَنَضرِبَ عنكم ... (لـ –)أن كنتم قومًا مُسرِفين؟ (٥).

٣- أَ(تقولون هذا؟ –)[٣] و مَن يُنَشّأُ في الحِلْيَة...(تجعلونه لله –)؟[٤] (١٨).

٤- ... ستُكتَب شهادتهم ، ويُسأَلونَ (عنها –)[٥] (١٩).

٥- وقالوا : لو شاء الرحمن (أن لا نعبدهم –) ما عبدناهم (٢٠).

٦- قال : أَ(تَقتدون بهم –)[٦] ولو جئتكم ...(٢٤).

---

(١) سيوضع المحذوف بين قوسين ، أعلاهما فارغ ، كما فعلنا مع الضمائر المقدرة ، فيما مضي.

(٢) إرشاد العقل السليم ٣٩/٨.

(٣) قال البقاعي :"اتّخَذ مَنْ لا يرضَوْنه لأنفسكم لنفسه، مع أنفَتهم منه ، واتّخذ مَن يُنَشّأ...؟" نظم الدرر ٤٠٢/١٧.

(٤) وفي الدر المصون ٥٧٨/٩، ٥٧٩ أن (مَن) يجوز أن تكون في محل نصب بفعل مقدر، أو أن تكون مبتدأ خبره محذوف ، والتقدير : أوَمَن يُنَشَّأ جُزْءٌ أو ولدٌ؟ و جعلوه لله جزءًا".

(٥) ونظم الدرر ٤٠٥/١٧.

(٦) السابق ٤١٢.

٧- و(اذكر)[١] إذ قال إبراهيم ... (٢٦).

٨- وقالوا : لولا نُزِّل هذا القرآن علي رجل من (إحدى) القريتين عظيم (٣١).

٩- و(لَجَعَلنا) لبيوتهم أبوابًا... (٣٤).

١٠- و(لَجَعَلْنا لهم) زُخرُفًا[٢] ، و إن(ه)[٣](٣٥).

١١- (يَصُدّونهم ، أو يُصدَ أحدُهم)[٤] حتّي إذا جاءنا... (٣٨).

١٢- أ(تريد إسماعَهم)فَأنتَ تُسمِع الصُّمَّ (دعوتك ، أو القرآن)،أو تَهدي العُمْيَ (الصراطَ المستقيم) ...؟(٤٠).

١٣- ... وسوف تُسأَلون (عنه)[٥] (٤٤).

١٤- ...أَ(ذهلتم) فلا تُبصرون؟ (٥١).

١٥- ...أفَلا تُبْصِرون(مُلكي) أمْ (تُبصرونه أنا خيرٌ؟)[٦] (٥١ ،٥٢).

١٦- ...قد جئتكم بالحكمة [لأعلّمكم إيّاها][٧] و لأُبيّن لكم بعض...(٦٣).

---

(١) السابق ٤١٤.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي ٢١٢/٢٧.

(٣) علي قراءة التخفيف ؛ فتكون (أن) هي المؤكّدة ؛ فيقدر اسمها ، و هو ضمير الشأن. و هذه القراءة لغير عاصم و حمزة. انظر : نظم الدرر ٤٢٦/١٧ ، و غريب إعراب القرآن لابن الأنباري ٦٦٣,٦٦٢. و قد ضعّف تقدير ضمير الشأن اسما لـ (أن) بالقياس إلى أن تكون كلمة (كل) بعدها هي هذا الاسم.

(٤) وقد يكون التقدير للمحذوف : يصدّ أحدَهم شيطانه ؛ ليوائم ذلك القراءة : "حتّي إذا جاءأنا" بإسناد الفعل لألف الاثنين.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣٦٥/٦. و في نظم الدرر ٤٣٨/١٧ : "تسألون عن حقّه ، وأداء شكره".

(٦) وقيل أن الكلام يتم عند (أم) علي أن الجملة المعادلة حذفت اختصاراً ؛ لإمكانية إدراك أنها مرادة ،وإن لم يتلفّظ بها. وقس ذلك الحذف علي ما قد يجري به الكلام بين المتحادثين.(مفاتيح الغيب للرازي ٢٧/ ٢٢٠). ولعل الأولي أطّراح هذا التوجيه ، والاقتصار علي تقدير أن المعادل مقدر ، جاءت جملة "أنا خير" بديلا له. ولعل الأرجح أيضًا اعتبار (أم) للإضراب الانتقالى.؛ لنبتعد عن التقدير.

(٧) قال البقاعي :"و لما كان المراد بالحكمة ما نُسخ من التوراة و غيره...فكان التقدير : (لتتّبعوه ، و تتركوا ما كنتم عليه) أمرًا خاصّا هو من أحكم الحكمة – فقال : "و لأُبيّن لكم". نظم الدرر ٤٦٣/١٧.

١٧- ...و تلَذّ(ه -، أو به -) الأعين...(٧١).

١٨- ...و (يقال لهم -):أنتم فيهاخالدون،و تلك الجنّةُ...(٧٢,٧١).

١٩- (و اللهِ -) لَقد جئناكم بالحقّ ... (٧٨).

٢٠- ...فأنا مبرِمون(أمر عقوبتهم -) (٧٩).

٢١- ... بَلَي (نسمعهما[١] -)،و رسُلنا لديهم يكتبونَ(سرّهم و نجواهم -) (٨٠).

٢٢- و (يَعلَم -) قيلَه[٢] (٨٨).

٢٣- ...فسوف يعلمون(صدق ما جئت به -) (٨٩).

لقد اعتمد النص الكريم في تخففه من المحذوف علي فطنة السامع ، أو المستقبل لرسالته البيانية. فكم من المحذوف قد اعتاده المتكلمون، كما هو شأن حذف المبتدأ أو الخبر جوازًا ، وحذف الضمير العائد علي الاسم الموصول ، إذا كان في محل نصب، وغير ذلك. ومثل هذا يندرج تحت مبدأ "التعاون" بين جانبي الخطاب ، كما يري الباحثون في "التداولية". وهو ما اهتم بالتوقف عنده علماؤنا قديمًا في دراستهم للنحو والمعاني. فقد قرّروا في الأول إمكانية حذف ما يمكن استشفافه من سياق الجملة ، بل أشاروا إلى بعض ما يجب حذفه ، مع تقديره ، وإن كان لم يتلفَّظ به. وقرّر أصحاب المعاني أن المحذوف يتقاصر الوقت عن ذكره؛ لعدم الحاجة إليه ، ولتعلق الغرض بالإغضاء عنه. ذلك أن النصوص عالية المستوي لا تعوّل دائمًا علي الاكتمال الظاهر للبناء الأساسي للكلام. ولا غرابة في هذا إذا كنا قد عرفنا أن ذلك يكون في التراكيب خارج هذا المستوي. علي أن توظيف مثل هذه التراكيب في السياقات الأدبية ، يزيدها قوة وقيمة تعبيرية، بخاصة إذا ما أضيف إلى ذلك توظيف دلالات الألفاظ ، والعلاقات بينها في تصوير المعاني وتجليتها. وهو ما نجده في المواضع التي عرضناها هنا.

نجد نماذج الحذف السابقة تتوزع بين ما يلي :

---

(١) أي : نسمع سرّهم و نجواهم. ونظم الدرر ١٧/٤٨٦.

(٢) التقدير هنا علي مراعاة قراءة النصب لكلمة (قِيل).

١- حذف بعض أجزاء من الجملة :

وقد تمثل ذلك واضحًا في حذف المفعول غير الضمير ، أو ماكان بمثابته. والراجح أن الفعل في هذه المواضع جعل بمنزلة اللازم ، وكذلك كأن ما شابه الفعل. ذلك أن المراد عموم معني الفعل وحده ، لا تخصيصه بمفعول.

كما رأينا احتمال حذف المبتدأ ، واحتمال حذف ضمير الشأن. ورأينا حذف الجار والمجرور ، أو أحدهما. كما حُذِفت أداة القسم و المقسم به.

و قد وقفنا ، من قبل ، علي مواضع الكثير من الضمائر المقدَّرة عند دراسة الإحالات.

٢- حذف الجملة :

و قد مثل أكثر النماذج من حيث العدد ؛ إذ بلغ خمس عشرة مرّةً.

و قُدّر وجود الجملة ، أو ما يقرب منها ، لسبق ورود مثلها ، أو لمجيء ما يستلزمها قبل موضعها ، أو بعده. وهو ما عُوِّل عليه في الاستغناء عن ذكرها في الأمثلة المحذوفة فيها.

وقد وقعت الجملة المحذوفة خمس مرات بين أداة الاستفهام وحرف العطف. ويبدو أن الزمخشري وحده هو الذي يري تقدير الجملة في هذا الموقع. وقد كان غيره يري أن الأصل أن يتقدم حرف العطف علي أداة الاستفهام ، لكن حدث العكس لاختصاص الاستفهام بالصدارة. وفي رأيي أن ما ذهب إليه الزمخشري ، وإن كان منفردًا به أقرب إلى الظاهر وأيسر من افتراض أن الأصل تقدم العاطف. ورأي الأستاذ عباس حسن إمكانية الإغضاء عن تقدير الجملة ليكون العاطف بعدها مستأنفًا كلامًا جديدًا.(١)

ويمكن اعتبار الجملة : "ويحسبون أنهم مهتدون" في الآية ٣٧ اعتراضية ، و تكون الواو استئنافية ؛ فلا نكون بحاجة إلى تقدير الجملة قبل "حتّي" في المثال ١٥.

(١) النحو الوافي ٣ /٥٧١ ، ٥٧٢.

وأميل إلى أن تكون (أم) في الآية ٥٢ منقطعة عمّا قبلها ، أو إضرابية ؛ وبذا لا يكون لدينا المثال ١٩ ضمن نماذج الحذف. علي أنهم قديمًا قد عرضوا لاحتمال أن تكون (أم) متصلة ، أو عاطفة يطلب بها التعيين. وعلي ذلك يلزم اتصال الآيتين ؛ لاعتبار الجملة "أنا خير" هي البديل عن الجملة المعادلة لتلك السابقة للأداة العاطفة. وقد كانت دلالة الجملة البديلة علي ما يرغب فرعون – وهو من تتحدث عنه الآيتان – في الاتصاف به – هي ما جعلها تصلح لأن تشغل هذا الموقع.(١)

(د) الاستبدال

يمثل الاستبدال تغييرًا في البناء التركيبي للجملة أو العبارة ، أو تحوّلا عمّا هو أصل لها ، كان يفترَض أن تجيء عليه ، لولا الحاجة إلى هذا التغيير ؛ ليكون الكلام موافقًا لما اعتاده المتكلمون، أو لما يحتاج إليه الموقف أو السياق. و يتمثل هذا – إلى حدّ كبير – في كثير من أمثلة الحذف ، التي عرضنا لها فيما مضي.

وقد يكون الاستبدال لسلوك غير طريق واحد في التعبير عن المعني ؛ إمّا لأجل أن تكتمل بذلك جوانبه ، أو للاختلاف في كيفية مراعاة التناسب بين عناصر التركيب ، أو ما يتطلّبه الموقف أو السياق. و يتحقق هذا في مظهرين اثنين :

١ –التراكيب ذات النظائر في السور الأخري.

٢ –المواضع التي تعدّدت فيها القراءات.

فأمّا عن المظهر الأول فنجد له في سورتنا التراكيب أو الجمل التالية مقابل أخري في مواضع مختلفة من القرآن :

(ا) في الزخرف: – "و جعلوا له من عباده جُزْءًا" (آ١٥).

– "و إذا بُشّر أحدُهم بما ضرب للرحمن مثَلا ظلّ وجهه مسْوَدًّا و هو كظِيم"(آ١٧).

وفي النحل: – "و يجعلون لله البنات ، سبحانه..."(آ٥٧).

(١) معاني القرآن للنحاس ٣٦٩/٦، و مغني اللبيب لابن هشام ٤٣,٤٢/١.

- "و إذا بُشّر أحدُهم بالأنثي ظلّ وجهه مسودًّا وهو كظيم" (آ٥٨).

إن هذين المثالين يندرجان تحت القضية الثانية من قضايا سورة الزخرف ، تلك التي عرضت لأوهام المشركين ، وتخرصاتهم حول الملائكة ، وهو ما عرضت له سورة النحل. والسورتان مكّيتان ، تعرضان لقضايا التوحيد ، وإرسال الرسل، والبعث والجزاء ، وتبرهنان علي كل ذلك ، وإن كان لسورة النحل النصيب الأوفر منه.

إن أولي الآيتين في السورتين لا تشتركان في غير جذر الفعل في أولهما ، وإن اشتركتا في التعبير عن المعني الذي نحن بصدده، وهو زعم المشركين كون الملائكة بنات الله ، حاشاه سبحانه. ولقد اختلفتا في المفعول ؛ فجاء صريحا في سورة النحل (البنات) ، وجاء علي غير ذلك في سورتنا (جُزْءًا)[١].

لقد ذكرت آية سورة النحل فريتهم صريحة من أول الأمر؛ لأنها تأتي ضمن سابقات لها تعدّد اجتراءاتهم علي الله تعالى وأمارات جحودهم لنعمته.[٢] أمّا آية سورة الزخرف فقد جاءت ضمن آيات لتفنيد زعم المشركين أن الملائكة بنات الله. كذلك أريد بها الزراية بهم ؛ لأنهم لم يدركوا أن من نسبوهم إلى الله بالبنوّة ، ليسوا إلا بعضًا من عباده ، أو "جزءًا" منهم. فهم يشبهونهم في

(١) اختلف بصدد أن تكون الكلمة بمعني (البنات) أو (البنت)، و أن العرب استعملوها لهذه الدلالة . والأمر نفسه حدث بشأن الفعل (أجزَأت المرأة) بمعني أنجبت بنتا. فقيل أن ما ورد من الشعر في ذلك مفنعل. البحر المحيط ٨ /١٠. وقد ذكر أن الكلمة تعني أيضا معنيي النصيب والحظ ، أو النّدّ. وانظر أيضا : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨ /٣٨٢. ومعنيا الحظ والنصيب والندّ مراعىً فيهما المعني اللغوي العام للكلمة ، وهو التقسيم أو المناصفة ، والمشاطرة. ولئن كان كون الكلمة بمعني (الإناث) – علي فرض صحة روايتها عن العرب – معتمدا علي هذا المعني أيضا – فإنه قد انتقل به انتقالا مجازيا ليشار به إلى أحد شطري الأبناء.و لعله يصح القول إن هذا أحد المعاني الإسلامية . فقد اكتسبت الكلمة معناها مما جاء صريحًا في آية النحل :"و يجعلون لله البنات ، سبحانه...".

(٢) الآيات من ٥٤ – ٥٦.

كونهم من خلقه ، سبحانه. ولقد أقرّوا من قبل أنه – تعالى – خلق السموات والأرض ، وذلك يستلزم خلق جميع الكائنات التي فيهما.

وقد اتفق تركيب الآية الثانية في السورتين من حيث المفردات فيما عدا كلمة "الأنثي" في آية النحل ، تلك التي كان التركيب "ما ضرب للرحمن مثلا" مقابلا لها في سورة الزحرف.

ولعل آيتي السورتين تتفقان في الإشارة إلى تناقض موقف المشركين. فهم ينسبون إليه سبحانه ما يرونه كائنًا ضعيفًا ، قد لا يعبئون به ، ولا يعوّلون عليه في حياتهم ؛ بل قد يتخلّصون منه ؛ فهو (أنثي). وفي الكلمة ما فيها من الدلالة علي اللين والضعف والخضوع. ولعلّ التعبير بالموصول وصلته ليكونا بديلين لها في آية الزخرف – جيء به لإفادة النتيجة المترتبة علي ذكر اللفظ صريحًا. فالعموم أو الإبهام في الاسم الموصول ، وجملة الصلة بعده ، والتنكير في مفعولها – كل ذلك يفيد الإغضاء عمّا سبق تقريره من زعمهم ؛ لعدم مقبوليته. ولقد ذكرت الآية السابقة في سورة الزخرف (آ١٦) كلمة "بنات" فكان في ذلك ما يدعو إلى العدول إلى استعمال هذا التعبير المشير بدلالتيه النحوية والمعجمية إلى حمق المشركين.

(ب) – في الزخرف :"إن الله هو ربّي وربّكم؛فاعبدوه.هذا صراطٌ مستقيم" (آ٦٤).

– وفي آل عمران:"إن الله ربّي وربّكم ؛ فاعبدوه.هذا صراط مستقيم". (آ٥١).

– وفي مريم :"و إن الله ربي وربكم ؛ فاعبدوه. هذا صراط مستقيم" (آ١٦).

جاءت الآيات الثلاث المتشابهة في تركيبها إلى حدّ كبير ، في سياق قصّة عيسي ، عليه السلام. وقد سبقها سوْق حديثه عمّا بعثه الله به إلى بني إسرائيل ، وأن تفاوت تفصيل ذلك من موضع إلى آخر. و موضع الزخرف أكثرها إجمالا ، و إن كان يشير إلى ما جاءت به آيتا سورة آل عمران :٤٩ ، ٥٠.

وتشترك آيتا الزخرف و آل عمران في عدم ابتدائهما بالواو، التي قد تكون عاطفة أو استئنافية.

وقد خلت الجملة الأولي، في آية آل عمران ، من الضمير (هو) لعدم حاجة سياقها إليه.فهو سياق سرد قصة آل عمران، وما كان من شأن ابنتهم مريم و ابنها عيسي – عليهما السلام – وما

أتي به قومه. وغير بعيد عن ذلك ما جاء في سورة مريم ؛ إذ هي تحدّثنا عن مريم – عليها السلام – بما يشبه ما جاء في آل عمران، و يكمله. فلسنا هنا بصدد معارض ، أو مجادل ، بل ربما نكون بصدد متردّد ؛ و لذا اكتفي بتأكيد الجملة الأولي بـ "إن".

لكنّا في سورة الزخرف بصدد مشركي مكّة المشاكسين ، الذين يشبهون معبوداتهم بعيسي ، وقد عبده النصاري ، أو أشركوه مع الله في العبادة. وواضح أن ذلك يستلزم التأكيد عند بيان تقرير عيسي – عليه السلام – مبدأ وحدانية الله ، وتفرده بالعبادة. ومن هنا جاء استعمال (هو) المفيدة للقصر أيضا.

(ج) – في سورة الزخرف:"فاختلف الأحزاب من بينهم ؛فويْل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم" (آ٦٥).

– وفي سورة مريم :"فاختلف الأحزاب من بينهم ؛ فويْلٌ للذين كفروا من مَشْهد يوم عظيم" (آ٣٧).

لعل الأقرب أن يكون الاختلاف بين الآيتين محتملاً أن يكون من باب التلوين التعبيري ، والتنوع في عرض المعني. ويتضح ذلك ممّا نجده من التسوية بين معنيي الفعلين (كفر – ظلم).[١] وفي القرآن : "والكافرون هم الظالمون" (٢٥٤ /البقرة). وفيه أيضًا : "أن الشرك لَظلمٌ عظيم" (١٣ /لقمان). فمعنيا الجحد والستر اللذان يدل عليهما لفظ الكُفر يقربان ، أو يستويان ، مع معنيي النقص ، أو وضع الشيء في غير موضعه ، اللذين يدل عليهما لفظ الظلم.[٢] فالكافر قد جحد نعمة الله بعبادته غيره ، أو إشراكه به. وهو بذلك قد وضع الكفر موضع الشكر المقتضي لعبادة الله وحده ؛ فيكون واضعا للشيء في غير موضعه ، وغير مؤدٍّ لحق الله عليه كاملا حال إشراكه به. و هنا نجد التلوين التعبيري في تبادل الفعلين للموقع في الآيتين.

يضاف إلى ما سبق الحاجة إلى استيفاء بعض جوانب المعني.

(١) تفسير القرطبي٨ / ٤١٦.

(٢) القاموس / كفر ، ظلم.

ومن ذلك كون استعمال الفعل (ظلم) مناسبًا لاحتمال أن تكون الآية تتحدّث عن كفّار مكّة ، لا قوم عيسي.[١] فهم قد ظلموا أنفسهم بشركهم الذي فنّدته آيات سورة الزخرف ، وبتركهم الهدي الذي جاء به النبي ؛ ليقيسوا شركهم علي شرك المدّعين اتّباع عيسي.

أمّا آية مريم فهي بصدد الحديث عن قوم عيسي ، الذين كان منهم مَن كفر به وأنكر نبوّته ، ومَن اختلط عليه الأمر ؛ فعبده من دون الله ، أو عبدهما معًا. ولذلك جاء التعبير بالفعل (كفر) الصريح في دلالته علي ما فعل هؤلاء.

ويظهر استيفاء بعض جوانب المعني أيضًا في استعمال كلمة "مَشْهَد" التي ربّما أفادت معني العذاب باعتبار ما أضيفت إليه. ولعل الآية تتهدّد المختلفين في أمر عيسي من شهودهم ذلك اليوم الذي انتهوا فيه إلى اتباع غير الحقّ.[٢]

والاختلاف في وصف اليوم جاء متناسبًا مع اختلاف المضاف السابق عليه. فناسب ذكر (المَشهد) وصف اليوم بـ (العظيم) الموحية بالكبر والهول. كما ناسب ذكر العذاب وصفه بأنه (أليم).

أمّا مظهر تعدّد القراءات[٣] فيكون بتنوّع في الوحدات الصرفية، وغيرها ، كالمصوّتات ذات الوظيفة الصرفية ، وإثبات بعضها أو حذفه.[٤] كذلك يكون بالتغيير في دالّ الإعراب.

وقد يمكننا استشفاف دلالة إضافية في قراءة بعض القراء بمدّ الألف من "فأنا" من الآية : "قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين" ، علي العكس ممّا قرأ به حفص ؛ إذ هو يختصر الحركة

(١) ذكر القرطبي أن الآيتين في مريم و الزخرف تحتملان ذلك.

(٢) القرطبي ٤١٦/٦.

(٣) سأعتمد في تتبعي لها علي كتاب النشر في القراءات العشروربما رجعت إلى غيره أيضًا فأنبه علي ذلك.

(٤) وبعض من هذا يتمثل في اجتزاء "المورفيم" الصوتي الدال علي المتكلم في وظيفة المضاف إليه ، أو المفعول به. ويعرض القراء لهما تحت مسمي : ياءات الإضافة ، و ياءات الزوائد.

الطويلة هنا. هذه الدلالة تتمثل في إرادة التوكيد ، أو لفت الانتباه إلى ما ينسبه المتكلم لنفسه.[١]

علي أن من الاختلافات القرائية ذات الصلة بتبادل الحركات، ما هو ألصق بالتنوعات اللهجية ، غير المرتبطة بالمعني ، كقراءة بعض القرّاء[٢] (أيّهُ) بضمّ الهاء في الآية : "وقالوا : يا أيها الساحر ، ادع لنا ربّك...". و هو ما ليس هنا مجال دراسته.

لقد تنوع الاستبدال القرائيّ ذو العلاقة بالاختلاف في طرق عرض المعني كما يلي :

(١) الاستبدال في الفعل و ما يتعلق بتركيبه :

ا) فكان لدينا الاستبدال في صيغة الفعل. و كان لذلك الصور التالية :

الأولي : الاختلاف بين كونه مبنيًّا للفاعل أو للمفعول. ونجد ذلك في الموضعين التاليين :

– في الفعل (تُخرَجون) في الآية ١١.وبه قرأ حفص وأغلب القراء العشرة. وثمّة قراءة بالبناء للفاعل (تَخرُجون).

– في الفعل من :"وإليه تُرجَعون" في الآية ٨٥. وبذلك قرأ حفص موافقًا أبا عمرو ، وابن عامر ، وأبا جعفر ، ونافعًا. وانفرد يعقوب بقراءة (تَرجِعون) ؛ بفتح حرف المضارعة وكسر الجيم.

و لعله واضح أننا بصدد طريقتين في التعبير عن المعني ، وإن رجحت قراءة البناء للمفعول ، وهو ما تؤكّده الرواية. وعدم التصريح بالفاعل – وهو الله تعالى – إنما يعني أن حتميّة العلم به قد أغنت عن ذلك، وأن لا مجال لاستبعاد وقوع الفعلين لكونه هو من سيفعلهما.

علي أن في التعبير بالفعل المبني للفاعل ما يشير إلى نفس المعني الثاني. ذلك أنه يشير إلى كون البعث يسيرًا ، علي غير ما يظنّ المشركون. فهم يَخرجون ، وكأنهم يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم ، كأن لم يطرأ عليهم موت!

(١) أشار ابن الجزري إلى وظيفة المد والزيادة فيه.. قال :إن العرب "تمدّ عند الدعاء ، وعند الاستغاثة ، وعند المبالغة في نفي شيء. و يمدون ما لا أصل له بهذه العلّة".النشر ١ /٣٤٤ ، ٣٤٥.

(٢) قرأه كذلك ابن عامر وصلا. إتحاف فضلاء البشر ٤٩٦. و ألف الضمير في (أيّها) محذوفة من الرسم.

الثانية : البنية الصرفية للفعل بين الثلاثي والرباعي. ويتمثّل ذلك فيما يلي :

١ – قرأ حفص وحمزة والكسائي خلف(يُنَشَّأ) ، و الباقون (يَنْشَأ).

ولعلنا يمكننا أن نلمح في غلبة القراءة بالثلاثي مناسبة لحديث الآيتين السابقتين عن كراهيتهم لإنجاب البنات.

ويمكن أن يكون اختلاف القراءتين لعرض المعني بأكثر من طريقة ، مع كونهما تدلان علي تفاوتهم في الاهتمام بالأنثي وزينتها.

٢– قرأ حفص:(أَشَهِدوا) موافقًا عامة القراء غير المدنييْن اللذيْن قرآ :(أَأُشْهِدوا).

وها نحن بصدد طريقتين في التعبير عن استنكار ما ادّعاه المشركون بشأن الملائكة. فهم لم يشهدوا خَلقهم ، ولم يُستحضَروا لذلك. وكأن قراءة المدنيين أريد لها تفسير القراءة الأخري. وهم لم يكونوا ليشهدوا ما لم يمكّنهم الله من ذلك أو يُشهِدهم. وهو ما لم يحدث.

٣ – قرأ حفص وأغلب القراء (يُلاقوا) ، وانفرد أبو جعفر بقراءته (يَلْقَوْا).

والقراءة بالفعل الرباعي تناسب ما سبق أن حدّثت به الآية عنهم ، من خَوْضهم و لعبهم. فكأنهم بصنيعهم هذا ، وعدم ارعوائهم و تنبههم إلى ما ينبغي أن يأخذوا به أنفسهم – يتطلّبون ما ينتظرهم من سوء المصير.

وتشير القراءة الأخري إلى أن ما سينتهون إليه من العذاب، سيكون بمثابة المفاجأة المؤلمة ، و النهاية غير المتوقَّعة.

الثالثة: الاختلاف في زمن الفعل ، كما في :

– الاختلاف بين الماضي و الأمر بين قراءتي : "قال : أوَ لو جئتكم" لحفص ، و ابن عامر ، و "قُلْ : أوَلو جئتكم" لغيرهما ، و لغير أبي جعفر.

و تفيد أولي القراءتين حكاية ما قال النذير لقومه ، وتفيد الثانية توجيهه إلى ما يخاطبهم به. و قد سبقت الإشارة إلى القراءتين ، و الاختلاف بشأن فاعلي الفعلين (قال – قل) فيهما عند تناول الإحالة إلى الرسول ، صلي الله عليه وسلّم.

الرابعة : الاختلاف في كيفية تأكيد الفعل :

اتفق القراء عدا أحد راويي يعقوب علي تأكيد الفعلين (نذهب – نُري) بنون التوكيد الثقيلة في الآية : "فإمّا نَذهبَنّ بك فإنا منهم منتقمون ، أو نرينك الذي وعدناهم...". أمّا هذا الراوي ، وهو رُوَيْس فقرأ بتخفيف النون فيهما. و وقف بالألف بعد الباء في (نذهبنْ).[١]

أنهما طريقتان للتأكيد ، قد تتطلب كلا منهما حالة دون الأخري. ولئن كانت القراءة الغالبة هي المناسبة للرد علي المشركين و تهدّدهم ، فإن قراءة رويس تعني أن أقلّ التوعّد منه –سبحانه – ينبغي أن يُحذَر.

الخامسة:الاختلاف في حرف المضارعة، والمسند إليه الفعل:

١– فيجمع الأمرين معًا قراءة حفص و أغلب العشرة: "نُقَيّض له شيطانا" بالنون ، علي حين روي عن يعقوب و أبي بكر عن عاصم :"يُقَيّض له" بالياء.

٢– و نري الاختلاف في حرف المضارعة في :

– قراءتي (تُرجَعون – يُرجَعون) في الآية ٨٥. وقد قرأ حفص بالأولي. علي أن الاثنتين متقاربتان من حيث عدد القارئين بكلتيهما. وقراءة المدنيّيْن وابن عامر بالخطاب (تعلمون) في الآية الأخيرة من السورة ، وغيرهم بالغيب (يعلمون).

وفي القراءات السابقة نجد الاختلاف بينها إمّا أن يكون راجعًا إلى اختلاف ما تراعيه من عناصر السياق كما في (١) ، أو إلى إرادة التحول عن المخاطبين والإعراض عنهم إيذانا بما هم عليه لجَج و تكذيب. ويعرف ذلك بالالتفات ، و هو ما نجده في القراءات في (٢).

٣ – و يتضح وجه الاختلاف في المسند إليه الفعل في :

– قراءة ابن عامر وحفص (جِئتكم) في الآية :"قال[٢] : أوَلو جئتكم بأهدي...؟" علي حين قرأ أبو جعفر : "قل : أو لو جئناكم".

---

(١) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ٤٩٦.

(٢) وقرأ غيرهما : "قل : أو لو جئتكم".

– الاختلاف بين القراءة بإفراد الفاعل و تثنيته في قوله :"حتّي إذا جاءنا" ؛ إذ قرئ : "جاءانا".

وإفراد الفاعل وجعله للمتكلم في الموضع الأول ، مناسب للحكاية عن النذير في الآية السابقة. وقراءة أبي جعفر تبين ما أمر النذير بقوله. وقد أسند الفعل إلى ضمير الجمع (نا) مراعاة لاحتمال دلالة (نذير) معني الجمع ؛ لكون الآيات تحدّثنا عن الأمم السابقة(١). وقد يكون استعمال (نا) للتعظيم للنذير. وأَحْر به أن يكون كذلك.

وجاء الاختلاف في الموضع الثاني مراعًي فيه العاشي عن ذكر الرحمن وحده مرّة ، وانضمّ إلى ذلك مراعاة القرين الذي يُقَيَّض له مرّةً ثانية. وتلمح في هذا الاختلاف نوعًا من التوازن بين القراءتين ، وإن رجحت قراءة الإفراد ، وقد قرأ بها حفص.

السادسة:الاستبدال فيما يتعلق بتركيب الفعل. و يتخذ ذلك الصور التالية :

١- الاختلاف بين التعبير بالجملة الشرطية وشبه الجملة

التعليلية. نجد ذلك في قراءتي : (إن كنتم) ؛ بإن الشرطية ، و(أن كنتم) بأن الموصول الحرفي ، في الآية :"أفنضرب عنكم الذكر صفحًا أن كنتم قومًا مسرفين".

وواضح ما في ذلك من التنوع في طريقة عرض المعني ، مع اختصاص القراءة بالشرط بمزيد تقريع ، وزراية بالمشركين ؛ لما في التعبير به من إيهام أنهم ليسوا مسرفين.(٢)

٢- الاختلاف بإثبات المفعول الضمير وحذفه ، أو اجتزاء حركة الكسر الطويلة (ياء المتكلم) القائمة بوظيفته.

– فمن الأول قراءة حفص والمدنيين وابن عامر :"وفيها ما تشتهيه الأنفس..." بينما قرأ الباقون "تشتهي".

(١) في الآية ٢٣ :"وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا علي أمّة ، وإنا علي آثارهم مقتدون".

(٢) وانظر : نظم الدرر ١٧ /٣٨٤,٣٨٥.

– ومن الثاني إثبات يعقوب ياء المتكلم بدلا من الاجتزاء بالكسرة الدالة عليها في (سيَهدِينِ – اتّبعونِ – أطيعونِ) كما فعل القرّاء في الأول والثالث ، أو أغلبهم في الثاني.

ولا شك في تقارب كلا المسلكين في التعبير عن المعني ، مع دلالة الحذف علي إرادة العموم ، وتعلق الغرض بالفعل وحده. ولابد أن يكون الغرض الصوتي مراعًي في الاجتزاء عن ياء المتكلم بالكسرة. ولعله لأجل ذلك لم يوافق كلّ من أبي جعفر وأبي عمرو يعقوب في إثباتها في الوقف في (اتّبعون).

٣–الاختلاف في مراعاة أصل التركيب الفعلي، علي ما نجد في عطف (قِيلِه) علي (الساعة)من التركيب :"وعنده عِلْمُ الساعةِ"علي أنها مضاف إليه ، أو علي أنها مفعول به في الأصل ؛ لأن الإضافة لفظية. وعلي ذلك الاحتمال الثاني جاءت قراءة (و قيلَه) بالنصب(١).

السابعة:الاختلاف في معني الفعل؛ بالاختلاف في حركة عينه:

ونجد ذلك في الاختلاف بين قراءتي (يَصِدّون – يَصُدّون). والأولي لعاصم. والفعل فيها بمعني : يَضِجّون ، أو يصيحون ؛ من التصدية ، وفي الثانية يُعرضون ، أو يمنعون غيرهم من الإسلام.

(٢) الاستبدال في الأسماء ، و يأتي علي صورتين :

ا) وجود علاقة الاشتمال بين الاسمين ، كما في الاستبدال بين كل اثنين ممّا يلي : مَهْدًا ، مِهَادًا – مَيْتًا ، مَيّتًا – سُقُفًا ، سَقْفًا – أسْوِرَة ، أسَاوِرة – سُلُفًا ، سَلَفًا – وَلَدٌ ، وُلْد.

و وقع الاستبدال بين كلمتي كل ثنائية مما سبق في الآيات :

–"الذي جعل لكم الأرض مَهْدًا ، وجعل لكم فيها سُبُلاً".

– "والذي أنزل من السماء ماءً ؛ فأحيَينا به بلْدَة مَيْتًا".

–"...لَجَعلنا لمَن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفًا من فِضّة".

(١) الحجة في علل القراءات السبع للفارسي ٦٠/٦. وقد يقدر الفعل (يعلم) لسبق ذكر المصدر في التركيب المشار إليه . وسبق ذلك في تناول الحذف.

-"فلولا أُلقِي عليه أَسْوِرة من فِضّة...".

-"فجعلناهم سَلَفًا[١] و مثَلاً للآخرين".

-"قل أن كأن للرحمن وَلَدٌ فأنا أول العابدين".

ويجمع بين الكلمات المستبدل بينها هنا كون إحداها ، في ثنائيتها ، يمكن أن تغني عن الأخري في كل مرّة ؛ لأنهما بمعني واحد، كما في الموضعين الأول والثاني[٢]، أو أنها مفرد يدل علي الجمع. وينطبق هذا الوصف الثاني علي المواضع جميعها عدا الثاني.[٣]

علي أن دلالة الجمع علي الكثرة ، لا تجعلنا نغفل عن تطلب السياق لها ، ولا عن الحاجة إليها لعرض بعض المعاني المحتملة. إننا نلمح القيمة التعبيرية لاستعمال الجمع في الموضع الثالث ، ومناسبته للجمع قبله.

كذلك نلمح احتمال تصوير القراءتين لمعنيين يمكن أن يكونا مرادين في الموضع الرابع. فقراءة الإفراد يراد بها الإشارة إلى سخرية فرعون من موسي – عليه السلام – لعدم امتلاكه أقل القليل ممّا رآه ضروريّا لأن يتزيّن به. أمّا قراءة الجمع فتعبر عما رآه مناسبا لأن يعضّد زعم موسي أنه نبي ، وذلك بأن يكون علي حال من الغني والثراء ، الذي يجسّده ما يتزيّن به.

ب) علاقة التباين بين الاسمين :

ونجد ذلك في الاختلاف بين قراءتي (عِبَاد) و (عِنْد) في الآية : "وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا".

وقرأ حفص بالأولي. وثمة استواء بين عدد أصحاب القراءتين. وكلتاهما تفيد علو شأن الملائكة ، مع كونهم مخلوقين لله تعالى ، لا ينفكون عن عبادته ؛ فهم "عباد الرحمن" أي

---

١ والسُّلُف : جمع السَّليف ، وهما بمعني السُّلَف.

٢ في القاموس : المَهْد : الموضع يُهَيّأ للصبي ويُوَطّأ كالمِهاد ، ج :مُهُود. وفيه : المَيْت : الذي مات. والمَيّت والمائت : الذي لم يمت بعد. وعلق محققه بهامشه : ولكنه بصدد أن يموت.

٣ في القرطبي ٨ / ٣٧٨ : "و من قرأ (مِهَادًا) جاز أن يكون مفردًا كالفِراش ، وجاز أن يكون جمع (مَهْد)".

خاضعون له ، يفعلون ما يأمرهم به. وقد تفيد ذلك القراءة بالظرف : "عِنْد الرحمن". فهم عنده ؛ ليستعملهم فيما يريد سبحانه. هذا بالإضافة إلى إفادتها بعدهم عن أن يقف هؤلاء المشركون علي طبيعة خَلْقهم.(١)

(٣) الاستبدال بين الحرف ، يليه اسم بيّن المعني بآخر يليه اسم مبهَم. وذلك بالاختلاف بين (لَمّا) و(لَمَا) في قوله تعالى : "وإن كُلّ ذلك لَمّا متاعُ الحياة الدنيا". والأولي قراءة عاصم وحمزة ، وابن جَمّاز ، ورويت عن هشام. وقرأ الباقون (لَمَا). و(لمّا) تكون بمعني (إلا) ؛ ليكون معني التركيب: ما كل ذلك إلاّ ، كما في قوله :"وإن كلٌّ لَمّا لَيوفّيّنّهم ربّك أعمالهم" (١١١/هود) ، وكما في قوله : "أن كلّ نفس لَمّا عليها حافظ" (٤/ الطارق). أما القراءة الأخري فمعناها : إن كلٌّ ذلك لَلّذي هو متاع الحياة الدنيا.(٢)

٣- التماسك المعجمي

لا تصاغ الجمل إلا من الكلمات المتآلفة ، حسبما تسمح به أنظمة اللغة المعينة. ولهذا التآلف مستويان : أوليّ – وهو مستوي الحقيقة – وثانويّ ، وهو مستوي المجاز. ولم يتوقف نحاتنا القدماء عند المستوي الأول طويلا(٣) ، فيما عدا مراعاة المطابقات في التذكير والتأنيث ، والعدد ، أو الإفراد والجمع. وكل ذلك متصل غالبًا بالوحدات الصرفية الأقل من الكلمة. والحق أن تجاوزهم التوقف الطويل ، عند هذا المستوي له ما يبرّره؛ إذ ليس طبيعيًّا أن يؤلف المتكلم جمل كلامه علي غير ما يعتاد الناس. والنحاة إنما يستنبطون قواعدهم من هذا المعتاد من الكلام.

(١) ذكر أبو حيان أن القراءة بالظرف أدلّ علي رفع المنزلة و قرب المكانة. البحر المحيط ٨ /١١ .

(٢) تفسير القرطبي ٣٩٨/٨.وفي الحجة للفارسي ١٥٠/٦ أن المعني : وإن كل ذلك لَمَتاع الحياة الدنيا ؛ علي أن (ما) زائدة. وكان قد اختار هذه القراءة ؛"لأن (لمّا) يمعني (إلا) لا يكاد يعرف، لا يكاد يتكلم بها".

(٣) أشار سيبويه ، في أول الكتاب ، إشارة سريعة إلى الحسن وغيره من أوجه تأليف الكلام.

وقد توقف سيبويه في ثنايا كتابه عند المستوي الثاني ؛ لإدراكه مفارقة تآلف كلماته لما يعهد الناس فيما يتلفظون به من جمل وعبارات. واعتُبِر لذلك ممّن أسّسوا للبلاغة العربية ، في هذا الزمن المبكّر.(١)

ولسنا هنا بصدَد درس أيٍّ من هذين المستويين في السورة الكريمة. فإذا كان كلام الناس يأتي غالبًا تامّ التآلف ، وعبارات أدبائهم و شعرائهم تتضمّن جديد التراكيب ، والمعاني ممّا لا يُعتاد في الخطاب الشائع – فإن القرآن فوق هذا وذاك. فلقد حفظ العربية، وضمن لها البقاء ، وكان من لدن تنزّله محطّ أنظار المنشئين والأدباء للانتفاع بأسلوبه وبيانه.

لكنّ ما نتوقف عنده هنا ، هو بعض الاختيارات المعجمية ، التي جاءت لتعمل علي ترابط آيات السورة ، وأجزائها. وهي إلى ذلك مسهمة في جلاء المعني. كما نتوقف عند الإحالات المعجمية ؛ لنتعرّف ما وراء الاختلاف في استعمال غير مفردة للإحالة إلى كلمة ، أو معني سابق ، أو ملحوظ. وقد عرفنا ما للإحالة من دور في ترابط الوحدات المعنوية الصغرى ، داخل قضايا السورة ، ثمّ في ترابط تلك القضايا عن طريق تلك الكلمات المحورية الأربع ، التي هي المحالات إليها الرئيسة ؛ بتخلّلها لأجزاء السورة بصورة ، أو بأخري.

١- استعملت السورة الترادف ، أو ما يشبهه كما يلي :

(أ) في الإشارة إلى المشركين ، ومن ماثلهم علي مدي توالي آيات السورة ؛ فكان في ذلك ربط بين أجزائها ، فضلا عن بيان أوصافهم المختلفة ، حسبما يقتضي السياق.

(١) عرض الدكتور عبد القادر حسين لملامح كثيرة في كتاب سيبويه ، تعد أصولا توفر عليها الدرس البلاغي بعدئذ ، وانتقد عدم اهتمام بعض الباحثين بدراسة مثل تلك الملامح ، مكتفين بترديد إشارات عبد القاهر إلى صاحبها. انظر كتاب الدكتور عبد القادر حسين : أثر النحاة في البحث البلاغي ١٣٩، وانظر ٧٩ حيث الإشارة إلى رؤية سيبويه ضرورة الحذف لأسباب بلاغية . وفي ص٨٩ اعتبر كلام سيبويه عن التقديم والتأخير يجعله صاحب الريادة في هذا، وأشار ص ٩٨إلى رأيه في عدم القول بفساد ذكر الاسم بعد أدوات الاستفهام. وأشار في ص ١٢٥إلى تناوله بعض مباحث البيان ، كالتشبيه ، والاستعارة ، والمجاز.

فالمشركون كانوا قوما "مسرفين". وهم يحاكون المكذبين من الأمم السابقة ، الذين اتبعوا ما عليه آباءهم ، وقالوا لرسلهم :إنهم "كافرون" بما أُرسِلوا به. و كان أن انتقم الله منهم ليقف الناس علي عاقبة "المكذّبين". وقد صنع المشركون الشيء نفسه ؛ فزعموا أن ما جاءهم به الرسول سِحر ، وقالوا إنهم به "كافرون". وهكذا يسلم هؤلاء قيادهم للشياطين ، الذين لن تنفعهم في الآخرة متابعتهم إياهم في الدنيا. بل يقال لهم : "لن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون". إنهم تنتظرهم عاقبة "الذين ظلموا" المنحرفين عمّا جاء به عيسي. وهم سيخلّدون في عذاب جهنّم ؛ لأنهم من "المجرمين ".

و الوصفان الأول والأخير يشتركان في الإشارة إلى حدّة ما عليه المشركون من التجاوز. ولعل الأخير أكثر ارتباطا بالأعمال الخبيثة المفسدة ؛ ولذلك جاءت به الآية : "إن المجرمين في عذاب جهنّم خالدون" ؛ فكانت ختامًا رادعًا لخطاب أولئك المسرفين.

وجاء الوصف "كافرون" علي لسانهم هم. وقد جابه به مكذبو الأمم السابقة رسلهم. وعقبت الآيات علي ذلك بالتنبيه إلى ما لحق بهم من العذاب لكونهم من "المكذّبين". وأشارت بعدئذ إلى مماثلة المشركين لمن سبقهم في قولهم للحقّ الذي جاءهم به رسول الله ، صلّي الله عليه وسلّم : "هذا سحر ، وإنا به كافرون". و هم بذلك يشبهون هؤلاء السابقين من "المكذّبين". ويتفق هذا الوصف مع سابقه (كافرون) في الدلالة علي ستر الشيء أو إخفائه ، لكنه يزيد عليه في الدرجة. وهم بذلك يكونون قد ظلموا أنفسهم وغيرهم من المؤمنين الذين كانوا يؤذونهم ، لانصياعهم لشياطينهم، ولاتباعهم غير الحق في أمر عيسي عليه السلام.

(ب) في تفنيد مزاعم المشركين حول الملائكة :

نجد استعمال السورة بعض الوحدات المعجمية المستقلة المعني ، والأخرى الموصولة بما يزيل إبهامها ، كما يلي :

(١)	(٢)
- جُزء.	– اتّخذ.
- بنات.	– أَصْفَى.
- ما ضرب للرحمن مثلا.	(٣)
- مَنْ يُنَشّأ في الحلية.	– مسْوَدّ.
- إناث.	– كَظِيم.
- وَلَدٌ.	

ربطت أفراد هذه المجموعات بين مجموعة الآيات التي تناولت هذا الموضوع ، أو بين طرفي إحدى آياته. وكما هو واضح ، فإن كل مجموعة منها تشترك في المعني العامّ. وهذا ما جعلها تتناوب ؛ حسبما يتطلّب الموقع.

ففي المجموعة الأولي يبدأ الحديث بذكر الجزء. وهي لا تبدو وثيقة الصلة بحقل الأولاد والبنوّة ، للوهلة الأولي. ولعلها صارت منه بعد استعمال القرآن لها. ثم تأتي الكلمة الثانية بما لها من ظل دلالي سيئ عندهم ؛ لكراهية بعضهم أن تولد له الأنثى. ويناسب استعمالها سياق الاستنكار والتعجب، الواردة فيه. ثم يتلو ذلك استعمال الموصول المشترك بديلا للكلمة السابقة ؛ بالاعتماد علي جملتي الصلة. وكان التحول إليه مترتبا علي ما سبقه. فقد دلّ هامش المعني ، أو ظله لكلمتي "جزء – بنات" علي مدي ضلال المشركين واجترائهم ، فيما نسبوه إلى الله تعالى. فالله ليس كالموجودات ذات الأجزاء. والإنسان أحدها ، أبناؤه أجزاؤه ؛ باعتبار ما كان ، وما سيكون أيضًا ؛ لشدّة تعلقه بهم وحرصه عليهم. وقد أخطأ هؤلاء المشركون، ووقعوا في اجتراء آخر علي خالقهم – سبحانه – بأن جعلوا له البنات الذين يكرهون أن تولد لبعضهم إحداهنّ.

ولهذا التحول إلى الموصول للتعبير عن "البنات" بالاعتماد علي ما اتصل به من بعض صفاتهنّ – دلالته الواضحة علي الإزراء بما يعتقد المشركون ، وإبطاله. وربما كان الموصول

الأول أكثر دلالة علي هذا ، إذا شئنا أن نفرق بينه و بين تاليه[١] ، باعتباره لما لا يعقل. وكأنه جاء ليجسّد نظرتهم إلى الوليدة ؛ فكأنها أقل من أن تكون من بني الإنسان.

ولمّا خلصت الآيات من نقض عقيدة المشركين في نسبة الولد إلى الله – انتقلت إلى نقض أوهامهم حول طبيعة خلق الملائكة. وهو ما يناسبه استعمال كلمة "إناث" ؛ لتوهمهم أن الملائكة خَلْقٌ علي هيئة الإناث. ثم لمّا انتهت الآيات من تقرير حقيقة عيسى ، خلَصت إلى نفي الولد عن الله تعالى فكانت الكلمة الصادقة علي جنسيه : الذكر ، والأنثى – هي المناسبة. ونحن نري كيف أعادتنا هذه الكلمة ، ضمن آيتها ، التي جاءت بين آيات آخر السورة التي تهدّد المشركين – إلى قائمة أخواتها المستعملة في القائمة (١) والمستعملة في الآيات الأولي ممّا ورد ضمن القضية الثانية.

والفعلان "اتّخَذ – أَصفي" يشتركان في أصل المعني ، وهو الاختيار والتخصيص. علي أنهما يختلفان في درجة الدلالة عليه. وللفعل الثاني النصيب الأوفى من ذلك. ومن هنا ناسب مجيئه آخر الآية ، حيث تعلو درجة الإنكار الذي أرادت أن تسجله.

والصفتان "مُسْوَدّ – كَظِيم" ليستا من حقل معجمي واحد. لكنّ إحداهما قد تكون سببًا للأخرى ؛ ولذا جاءتا متناسبتين تمامًا في وصفهما حال المبشّر بالأنثى آخر الآية ١٧ .

استُعملت كلمات أخري مع غيرها ممّا يشاركها المعني ؛ فكان للكلمة الثانية دورها في بيان الأولي ، وتقوية معناها واستيفائه.

(ج) نجد هذا في استعمال الوصفين[٢] "مهتدون – مقتدون". وربما كان الاقتداء بالغير سببًا

(١) يمكن التسوية بينهما لمجيء الواحد منهما في موضع الآخر أحيانا ، وإن كان هذا غير الغالب. ومن ذلك : "فانكحوا ما طاب لكم من النساء" (٣ / النساء) ، "والله خلق كل دابة من ماء ؛ فمنهم من يمشي علي بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي علي أربع" (٤٥/ النور).

(٢) وقعا خبرين في آخر الآيتين ٢٢ ،٢٣.

في الاهتداء. ولذلك جاءت الكلمة الثانية في سياق ما قالته الأمم السابقة للرسل للإزراء بزعم المشركين تحقق الهداية في اتباع طريق الآباء.

(د) ونجده في "منتقمون – مقتدرون" في سياق تهدّد المشركين. والاقتدار هو السبب في الانتقام ، كما أن الانتقام ملوَّح به عند التعبير به ؛ فلكأن الكلمة وما بعدها بمعنًى. ومن هنا كان توظيف ما بينهما من علاقة في الربط بين نهاية آيتيهما.

(هـ) وفي الحديث عن عيسى ، عليه السلام نجد الإشارة إليه أوّلاً بـ "ابن مريم" ، ثم يذكر اسمه العلم "عيسى" بعدئذ. و كان مجيء الكنية والعلم في بداية الحديث ونهايته – أو قريبا منها – حيث الإشارة إلى حقيقة ما جاء به – عليه السلام – كالإحاطة بمجمل هذا الحديث. وكان لا بدّ من ذكر كنية عيسى أوّلا ؛ لتكون أول ما يقَرّ في أسماع المشركين الجاهلين لحقيقته أو المجادلين فيها. فهو ليس إلاّ بشرًا ، جعله الله آية للناس هو وأمه ؛ فهو ابن مريم ، وليس كما يتوهمون ، أو يجترئون ؛ فيقولون غير الحقّ في شأنه.

وقد تضمّن ذكر ما جاء به عيسى أنه جاء بـ "البينات ، والحكمة".

(و) وكذلك جاء في نداء "المتّقين" بـ : يا "عباد(ي)" . ويتضح هنا دور الوحدة الصرفية الصغرى في تغيير حجم الكلمة، والإضافة لمعناها المعجمي. وهذه الإضافة هي التي جعلت الكلمة المركبة في مقام المرادفة لسابقتها. وهكذا ترتبط آخر الآية ٦٧ بأول تاليتها عن طريق تلك الكلمة المركبة المناسبة لموضعها ؛ لأن سابقتها قد جعلت الموصوفين بها أهلا لأن ينادوا بهذه الكلمة.

وجاء التنزّل في وصفهم بعدئذٍ مناسبًا للسياق ، مؤكدًا للمعني ، رابطا بين طرفي الآية:"الذين آمنوا بآياتنا، وكانوا مسلمين". فالأفعال : اتقي ، آمن ، أسلم ، كلها تشترك في أصل المعني ، وهو الانقياد والطاعة لله. ويدل الفعل "أسلم" علي أولي درجات ذلك. ويلي الإيمان الإسلام ، ثمّ التقوي. فالإيمان اعتقاد جازم بصحة ما أسلم المرء نفسه إليه ، وعمل بما يقتضيه

ذلك. فإذا تأكد الالتزام بذلك ، وكان من الثبات بمكان كانت التقوي ، وهي اتقاء ما يفضي بالمرء إلى العذاب.

وقد بدأت الآيات بذكر المتقين لتستثنيهم من الوقوع في التعادي يوم القيامة ؛ وذلك لكونهم قد بلغوا الغاية في الطاعة والعبادة. ثم إنها تنزلت درجة لتذكر أنهم ولجوا طريق التقوي عبر الإيمان بآيات الله ، ثم تابعت التنزل لتشير إلى أنهم "كانوا مسلمين". وذلك لأجل ترغيب الكافرين في أن يسلكوا الطريق الموصل إلى النجاة يوم القيامة.(١)

(ز) وكذلك في استعمال الفعلين "تشتهي – تلَذّ" في الحديث عما في الجنّة من النعيم. ويجمع بين الكلمتين الدلالة علي ما تشتدّ الرغبة فيه ، غير أن الأكثر أن يسند الأول إلى النفس ، والثاني إلى العين ، كما جاء في الآية.

(ح) وجاءت كلمتا "سِرّ – نجوَي" في الحديث عن إحاطته – سبحانه – بكل ما يفعل المشركون. و قدّم السّرّ ؛ لأنه خَفيّ. و هو المكر المشار إليه بالإبرام. و ذكر النجوي لإرادة حقيقة السمع المذكور في الآية ، لا أنه يراد به العلم.(٢)

(ط) و كذا استعمل الفعلان "يخوضوا – يلعبوا" في تهدّدهم لما هم فيه من الغفلة والإعراض.

٢- ولاستعمال العامّ ؛ ليتلوه الخاصّ دور المترادفات وأشباهها في توضيح المعني ، وتقوية بناء الجملة ، علي ما نري في :

- الأحزاب ، الذين ظلموا.
- الأخلاّء ، المتّقين.

(١) وانظر : نظم الدرر ١٧ /٤٧٧.

(٢) السابق ٤٨٦.

والكلمتان الأوليان وردتا في سياق بيان موقف بني إسرائيل من عيسى ، ووردت الأخريان في بيان تباين حال المؤمنين والكافرين يوم القيامة. و لعله واضح أن الأولي في كلا السياقين يمكن أن تنبئ بقرينتها ، وإن كان لبقية مكوّنات الآيتين دور في هذا.

٣- وأتي الخاص في مفتتح السورة ليتلوه العامّ. فجاء الحرفان المقطّعان (حم) اسمًا للسورة مقسَمًا به ؛ ليعطف عليه (الكتاب) مراداً به القرآن كله.

٤- وتكررت بعض الكلمات ، أو بعض صور لها من مادتها ؛ فقامت بدور الربط بين الآيات ، وأجزاء السورة، وزادت من قوة اتصالها ، فضلا عن دورها البياني.

(ا) تكرّر استعمال بعض الأفعال ، كما هو شأن :

- قال : واستعمل ماضيًا أربع عشرة مرّة ، ومضارعًا ثلاث مرّاتٍ ، كان في اثنتين منها مؤكّدًا بلام جواب القسم في أوله ، ونون التوكيد الثقيلة في آخره. كما استعمل الأمر منه مرّتين.

والفعل قال مستعمل في إعلأن المواقف و إشهارها. وقد جاء في كل قضايا السورة ، فيما عدا أولاها. و تكرّر استعماله في غير عنصر من عناصرها المعنوية.

- جعل : واستعملت إحدى عشرة مرة ، جاءت متخلّلة تناول خمس من قضايا السورة، بدءًا من الأولي.

وإذا كانت الدلالة العامة للفعل هي التحويل والتصيير ، فإنها كانت القاسم المشترك بين استعمالاتها. علي أن درجة المعني تزيد، في استعمالها في القضيتين الأولي ، والثانية ، كما يتضح من الآيات :

- "إنا جعلناه قرآنا عربيًّا...".

- "الذي جعل لكم الأرض مَهْدًا ، و جعل لكم فيها سُبُلاً...".
- "...و جعل لكم من الفلك و الأنعام...".

فهي في الآية الأولي بمعني : أوْجَد ، وفي التاليتين بمعني: هَيّأ وذَلّل. ومن هنا عُدِل عن استعمال الفعل "خلَق" في الآية الثانية ، وعن العطف علي مفعوله في الثالثة.

ويظل هذا المعني العام حاضرًا في تناول عناصر القضيتين الثالثة ، والرابعة ، وكذلك في الخامسة ، وإن اتّسم بنوع من الحدّة والتجاوز في بعض استعمالاته ، أو بقدر من الخصوصيّة والتميّز.

فجاء بمعني الزعم الكاذب ، والافتراء ، كما في :

- "وجعلوا له من عباده جزءًا".
- "وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا".

ثم يظهر معناها الأساسي والأشهر في الآيتين :

- "و جعلها كلمة باقية في عقِبه".
- "أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون؟".

ويتميز المعني الأساسي في الآيات التالية ، بإسناد الفعل إلى الذات الإلهية ؛ فيكون للمتحقّق منه ، وغيره ، ما ليس له ، إذا ما أسند لغيرها. وهذه الآيات هي :

- "فجعلناهم سَلَفًا و مثَلا للآخرين".
- "وجعلناه مثلا لبني إسرائيل".
- "...لَجَعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلُفون".
- خَلَق : و استعمل ماضيًا أربع مرّاتٍ.

لقد زاد استعمال الفعل من تقوية الربط بين جملتي الآية التاسعة الرئيستين ، كما زاد من تأكيد معني الجملة الثانية. بل ربط بين هذه الآية والآية الثانية عشرة ، التي بها يتم امتنان الله

علي المخاطَبين بما خلق لهم و ذلّل ممّا هم في حاجة إليه. وبذا يكون الفعل قد وُظف للربط بين معظم ما عالجت به الآيات القضية الثانية.

- "ولئن سألتهم : من خلق السموات والأرض ، ليقولُنّ : خلَقهنّ العزيز العليم".
- "والذي خَلق الأزواج كلّها..."

ثم يأتي الفعل في الآية ٨٧ ؛ ليربط استعماله ضمن سياقه المشابه لسياق الآية قبل السابقة – بين القضيتين الثانية والسادسة. والآية هي: "ولئن سألتهم:مَن خَلَقهم ليقولنّ : الله. فأني يؤفَكون؟"

- جاء : واستعمل ماضيًا تسع مرّات في مواضع تناسب ما اختصّ به دون "أتي" الذي يشاركه المعني العامّ ، وهو حضور الأمر وظهوره. ويختص "جاء" بالحسّيّات المتحققة في جلاء. وهو ما نجده في الآيات التالية ، المنضوية تحت أكثر من قضية من قضايا السورة :
- "قال : أولو جئتكم بأهدي ممّا وجدتم عليه آباءكم؟"

–"بل متّعتُ هؤلاء و آباءهم حتي جاءهم الحقّ ورسول مبين".

- "ولمّا جاءهم الحقّ قالوا : هذا سحر...".
- "حتّي إذا جاءنا قال : يا ليت بيني وبينك بُعْد المشرقين".
- "فلمّا جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون".
- "فلولا أُلقي عليه أسورة من ذهب ، أو جاء معه الملائكة مقترنين".
- "ولمّا جاء عيسي بالبينات قال : قد جئتكم بالحكمة".
- "لقد جئناكم بالحقّ ، و لكنّ أكثركم للحق كارهون".

ومن البين ما للتكرار للفعل وما أسند إليه من الأثر المعنوي في الآيتين الثانية والثالثة ، المتتاليتين في السورة.

- و جاءت بعض الأفعال بأكثر من صورة ؛ لما يلي :

- الاختلاف في الزمن ، كما في :

((لـ [١])تستو(وا) ، استو(يتم) – اتّخَذ ، يتّخذ – يَقْسِم ، قَسَم – تُسأَلـ(ون) ، اسأل).

- الاختلاف في كيفية الإسناد ، علي ما نري في :(ضَرَب – ضُرِب). وقد استعمل الفعل في المواضع الثلاثة التي ورد فيها للدلالة علي الجعْل ، واقتراح المثل ووضعه. وقد ربط استعماله بين القضيتين الثالثة (تفنيد معتقدات المشركين) والخامسة (عيسي بن مريم عبد الله ورسوله).

أيضًا جاء الفعل (يَصُدّون (هم) – يَصُدّ(نّكم) –يصُدّون[٢]).

- وجاءت بعض المشتقات ؛ لتمثل شبه تكرار لفعل سابق ، كما في (تهتدون ، مهتدون – ظلم(ناهم)، الظالمين – اعبد(وه) ، العابدين – أبرم(وا) – مُبرمون).

ولَكَم ربط هذا النوع من التكرار بين معاني الآيات، وأكدها، بل ربط بين القضيتين المتتاليتين.

تجد الربط بين طرفي الآية و التأكيد في الآيتين :

- "وما ظلمناهم ، ولكن كانوا هم الظالمين".
- "أم أبرموا أمرًا فإنا مُبرِمون".

وسنقف علي ما لذلك من قيمة في دراستنا للتماسك الصوتي.

وتجد الربط بين القضيتين في شبه التكرار للفعلين المتبقيين.

أ– فقد جاء اسم الفاعل المجموع (مهتدون) في حكاية موقف الكافرين المتعنّت من الرسول والقرآن :

"بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا علي أمّة ، وإنا علي آثارهم مهتدون".

---

(١) أضع ما اتصل بالفعل سابقا له أو لاحقا به ؛ ليكوّن كلمة واحدة بين قوسين ؛ ليتميز موضع المشابهة لأجل التكرار.

(٢) علي غير قراءة حفص.

وكان ذلك كأنه التنديد بهم ؛ لأنهم لم ينتفعوا بالنظر في الكون المسخّر لهم ؛ ليهتدوا إلى خالقه ؛ فيعبدوه ، كما اهتدوا إلى السير في سُبُله و فِجَاجه. ولقد خُتِمت الآية العاشرة بالإشارة إلى ما أتيح للإنسان من سبل الاهتداء في سيره علي الأرض. ولعل السياق يكون أكثر صلة بهذا ؛ فالآية تقول :

" الذي جعل لكم الأرض مهدًا ، وجعل لكم فيها سبلا ؛ لعلكم تهتدون".

لكن لا يمتنع أن تكون الهداية المعنوية ، أو الاهتداء إلى معرفة الخالق وعبادته مرادة أيضًا. ولعل ما ذكرته عن الآية السابقة يجعل ذلك أمرا غير مستبعد.

وتنضوي الآية السابقة تحت القضية الأولي : القرآن تذكرة للمتغافلين عن الحقائق الكونية الظاهرة الداعية للإيمان. أمّا سابقتها فتنضوي تحت القضية الثانية : فساد معتقدات المشركين.

ب- وجاء في آيات القضية الخامسة : عيسى بن مريم عبد الله ورسوله – الآية : "إن الله هو ربي وربّكم ؛ فاعبدوه".

وفي آيات القضية السادسة : تهديد للمشركين وتحول عنهم – جاءت الآية "قل : إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أوّل العابدين".

- و قد يكون التكرار بالفعل بعد المشتق ، علي ما نجد في :

(كَفور ، كافرون ، يكفر – مستمسكون ، استمسِكْ).

وقد جاءت هذه جميعها لتربط بين القضيتين الثانية والثالثة: تفنيد عقائد المشركين ، وإبطال توهمهم ارتباط النبوة بالثراء والجاه. وترد الآيات متتالية حسب توالي كلمات المجموعتين ، مع ملاحظة ما بينهما من تداخل. و يكون لتوالي تلك الكلمات المتشابهة من الأثر في الربط بين الآيات – علي تباعدها – وإبراز وحدة ما تتناوله ، أو تجلية الحق بعد كشف زيف الباطل.

نجد إبراز وحدة الموضوع المتناول في مجموعة الآيات :

- "وجعلوا له من عباده جزءًا. إن الإنسان لَكَفور".

- "ولمّا جاءهم الحَقّ قالوا : هذا سحرٌ ، وإنا به كافرون".
- "ولولا أن يكون الناس أمّة واحدة لجعلنا لمَن يكفر بالرحمن ، لبيوتهم سقُفًا من فضّة...".

و نجد تجلية الحق بالمقارنة بنقيضه في الآيتين :

- "أم آتيناهم كتابًا من قبله ؛ فهم به مستمسكون؟"
- "فاستمسِك بالذي أوحِيَ إليك...".
- و قد يتبادل الفعل ومصدره ، أو الاسم المأخوذ منه ، الدورَ في أن يكون أحدهما كالمكرّر المشير إلى سابقه. ويؤدّي ذلك – غالبًا – إلى الربط بين الآيتين المضمَّنتين الكلمة وشيه تكرارها ، سواء أتقارب موضع الكلمتين أم تباعد. ويتضح ذلك بملاحظة الكلمات :

(صَفْحًا، اصفَحْ – الخِصام ، خَصِم(ون) – شَهِد(وا) ، شهاد(تهم) ، شهِد – سِحْر ، الساحر – عِلْم ، يعلم(ون) – (الـ)بيّنـ(ات) ، أُبيّن).

فإذا ما استثنينا الثنائيتين الأخيرتين وجدنا سابقاتهما يربط مجيء كلمتها الثانية – وربّما الأولي أيضًا – بين قضيتين متباعدتين ، من قضايا السورة ، عدا الكلمتين الأخيرتين اللتين ربطتا بين اثنتين متتاليتين.

- فالصفْح ؛ بمعني الإعراض والتحوّل جاء مصدرًا في الآية الخامسة ، في سياق استنكار أن لا يكون للقرآن تذكير للمشركين بالله لمبالغتهم في الإعراض والتكذيب.

"أفنضرب عنكم الذكر صَفْحًا أن كنتم قومًا مسرفين؟"

فلمّا تمّ تذكيرهم ، ومناقشة أوهامهم ، وإبانة بطلان ما هم عليه من العقائد الباطلة ، التي يحاكون الأمم المهلكة السابقة في التمسك بها – كان أن ربطت السورة أولاً بآخر ؛ فجاء في مفتَتح آية اختتامها :

"فاصفَح عنهم ، وقل : سلامٌ ؛ فسوف يعلمون".

- والخِصَام يعني : الجَدَل واللّجاجة. والخَصِم مفرد الجمع المكرّر به المصدر السابق. وهو صيغة المبالغة من اسم الفاعل.

ولمّا كانت السورة تحاجّ المشركين كان من المناسب النعي عليهم أن يجعلوا لله البنات اللاتي لا يستطعن – غالبا– إلزام غيرهن الحجّة. تقول الآية ١٨ :

" أوَمَن يُنَشّأ في الحِلية ، وهو في الخصام غير مبين؟"

ثم تصفهم الآية ٥٨ في آخرها بأنهم "خَصِمون" ؛ لما بدا من لجَجهم ، وتلبيسهم الحق بالباطل بتسويتهم بين معبوداتهم الباطلة ، وعبادة النصارى عيسى ضلالا منهم ، وتجاوزًا للحقيقة البيّنة بشأنه.

"ولمّا ضُرب ابن مريم مثلا...وقالوا : أآلهتنا خير أم هو[١] ؟ ما ضربوه لك إلا جدَلاً ، بل هم قوم خَصِمون".

ولعل مثل هذا التكرار يشير إلى مدي المفارقة بين ما يرونه لأنفسهم من المبالغة في الدفاع عن باطلهم ، وما ينسبون لله ممّا لا يمكنه – كثيرًا – إقامة الحجّة ، أو نصرة الحق ؟

- وجاء الفعل "شهِد" ومصدره في الآية ١٩ :

" وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا. أَشَهِدوا خَلْقهم؟ ستُكتَب شهادتهم ، ويُسْألون".

فكان للتعبير بالمصدر من القوة في تأكيد مدي جرأة هؤلاء الشاهدين ما لا نجده في التعبير بغيره. وكأنه أريد بالمجيء بالمصدر بيان ما للشهادة من الخطر المستوجب أن تكون صادقة أمينة ، نابعة من رؤية و اطّلاع ، أو تعرّف للحقيقة. وهذا ما جاءت الآية ٨٦ في آخر السورة

(١) لما نزل قول الله : "إنكم و ما تعبدون من دون الله حصَب جهنّم" قال ابن الزِّبَعْرَى إنهم يرضون أن يكونوا مع من يعبدون عيسى. فهم يعبدونه مع الله ، أو من دونه ، كما قرّر الإسلام فلئن كانوا في النار إنهم يرضون أن يكونوا مثلهم. تفسير الرازي ٢٧ /٢٢٢.

لتقرّره ضمن نفيها أن يكون لمعبودات المشركين أي جدوي تعود عليهم يوم الحساب ؛ حيث تقول :

"ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق، وهم يعلمون".

- وهؤلاء المشركون ، جاءهم رسول الله – صلي الله عليه وسلم – بالقرآن ؛ فقالوا : "... سِحْرٌ ، وإنا به كافرون".

وكذلك فعل فرعون وملؤه ؛ فلقد جاءهم موسى بالآيات المتتابعة ؛ فقالوا : "يأيها الساحر ادعُ لنا ربّك...".

وجاء الفعل "أبيّن" ليؤكّد المعني والوظيفة لكلمة "البيّنات" السابقة له في الآية :

"ولمّا جاء عيسي بالبينات قال : قد جئتكم بالحكمة ، ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه".

و تكرّر مجيء الفعل "يعلم" مسندا إلى واو الجماعة في آيتي ٨٩,٨٦ في آخر السورة. وقد جاء ضمن تعقيب في آخرهما ، كان أكثر قربًا من التهديد ، أو – علي الأقل – التلويح بتحول الأمر إلى غير ما عليه المشركون.

ولعل سبق المصدر "عِلْم" في الآية : "وإنه لَعِلْم للساعة" في سياق الحديث عن عيسي ؛ حيث يراد تخويف المخاطبين باقتراب الساعة – يجعلنا نلحق التكرار هنا بما سبق الموضع السابق. فيكون التخويف بالساعة ممهدا لما جاء أخيرًا من التهديد للمشركين و إظهار التحول عنهم.

علي أن الارتباط هنا بين مواضع تكرار الكلمة قد يقتصر علي الاشتراك في المعني المعجمي.

(ب) كما تكرّرت بعض الأسماء :

– فتكرّرت (السموات والأرض) ثلاث مرّات ، مع وجود مضاف قبل الكلمة الأولي في المرتين الأخيرتين ، هما: رَبّ ، مُلْك.

وجاء تكرار الكلمتين متعاطفتين مرتين آخر السورة ، بعد إضافة كلمة "ربّ" ثمّ كلمة "مُلْك" إلى أولاهما ؛ ليكون في ذلك ربط بين آخر السورة – حيث التنزيه لله تعالى – وأولها ؛ حيث الإشارة إلى إقرار الكافرين بخلق الله السموات والأرض.

وجاءت كلمة "السماء" مرتين في الآيتين (١١ ، ٨٤) وهما :

- "والذي نزّل من السماء ماءً بقدر ؛ فأنشرنا به بلدة ميْتًا...".
- "وهو الذي في السماء إلهٌ ، وفي الأرض إله...".

والكلمة اسم جنس تدل علي معني كلمة "السموات" ، كما في الآية الثانية هنا. وقد تشير إلى مفردها ، إذا ما اقتضي السياق ذلك. علي أنها تدل علي معني العلوّ والارتفاع في الآية الأولي ، لا السماء ، أو السموات ، التي هي الأجرام العلوية المقابلة للأرض.

وقد ربط استعمال كلمة "السماء" بين القضيتين الأولي والأخيرة في السورة. وللكلمة معني عام يشمل معني "السموات" التي سبق ذكرها في آية التنزيه السابقة علي هذه الآية الثانية :

- "سبحان ربّ السموات والأرض ربّ العرش عمّا يصِفون".

ولقد استعملت كلمة "السماء" في هذه الآية لما لها من الدلالة علي معني العلوّ والارتفاع وحدهما ، وهو ما جاءت بمعناه في الآية الأولي من آيتيها. وهو ما مهّد لأن تشتمل آية التنزيه الثانية، التالية (٨٥) علي التركيب : "ما بينهما" معطوفا علي "السموات والأرض".

ولعل في التوقف أمام مثل هذه الملاحظة ، وغيرها ؛ ممّا يشير إلى أوجه للترابط بين أجزاء النص الكريم – أخذًا بما رأي بعضهم من ضرورة توظيف "الاستعمالات اللغوية من خلال تماسكها ، و علاقاتها الدلالية العميقة ، التي تضم الأجزاء ، التي يبدو أنه مشتّتة علي سطح النص في كلٍّ موحَّد ، يقدّم المعني العام للنصّ".[١]

(١) علم لغة النص ١٦١.

- وكررت كلمة "بيوت" في الآية ٣٤ بعد مجيئها في سابقتها. وقد جعل أبو السعود العمادي ذلك من زيادة التقرير.[١]

- ونلحظ تكرارا لبعض أسماء الله – تعالى – وهي : العليم، الرحمن ، الله.

فيطالعنا الاسم الأول في آخر الآية ٩ ، ونجده كذلك في آخر الآية ٨٤. وهو في كلا الموضعين يتلو اسمًا آخر من الأسماء الحسني ، يناسب سياق كل آية. فذكر إقرار الكافرين لله بخلق السموات والأرض في الأولي ، يناسبه مجيء "العزيز". كما أن تنزيهه تعالى في الأخيرة يناسبه مجيء "الحكيم". ويزيد من هذه المناسبة إشارة الآية السابقة إلى خوض الكافرين ولعبهم. ففي ذكر الصفة إشارة إلى ما وراء إمهال الله لهم من حكمة. وفي اختتام الآيتين بـ "العليم" ما فيه من الإخافة والتهديد لهؤلاء الكافرين المعاندين.

ويتكرّر الاسم "الرحمن" سبع مرّات. ولقد ورد الاسم الكريم في مواضع تستدعي كلها ذكره دون غيره ، لدلالته علي عموم رحمته – تعالى – وشمولها كل خلقه.

فاجتراء الكافرين علي جعل الملائكة إناثا ، وادّعائهم نسبتهم إلى الله، وعبادتهم لهم مغترّين بعدم العقوبة ، وزاعمين أن تلك العبادة بمشيئة الله – كل ذلك ممّا يستلزم العقوبة والعذاب ، لولا رحمة الله التي سبقت غضبه.

وها هم الكافرون من أمثال المخاطبين منعمون ، وما ذلك إلا بسبب رحمته تعالى لخلقه ، ولو شاء لأسبغ عليهم الكثير والكثير من مظاهر التنعم ، ورغد العيش ؛ لهوان الدنيا عليه ، سبحانه. إنهم يغترّون بزخرف الدنيا ، ومتعها الزائفة ؛ فيضلون الطريق ؛ ليقعوا في حبائل الشياطين ، بدلا من الإفادة ممّا غمرهم الله تعالى به من رحمته ؛ ليكون وسيلتهم إلى نيل رحمته في الآخرة. ولقد جاءت الرسل من قبل ؛ لتحذر أممهم من الاغترار الذي وقع فيه المشركون ، ولتوجب عبادة الله

(٢) إرشاد العقل السليم ٨٥/٥.

وحده. أنه سبحانه منزّهٌ عن الولد ، أو الشريك. ولم يوح بشيء من ذلك كما يزعم المشركون المغترّون برحمته تعالى.

نجد اسم "الرحمن" في الآيات :١٧، ١٩، ٢٠، ٣٣ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٨١.

ويأتي التعبير بلفظ الجلالة "الله" ثلاث مرّات ، اثنتان منها في دعوة عيسي إلى عبادة الله وحده وتقواه ، وواحدة في بيان أن المشركين ومن يشركون بهم لا يقرّون إلا بأن خالقهم هو الله. والتعبير بالاسم الكريم آتٍ قبل الموضع الأخير للاسم "الرحمن" وبعده. فجاء في سياق الحديث عن عيسي ليزيل تشبث المشركين بشركهم ، وليبرز لفظ الجلالة العلَم علي الذات الإلهية ، بما يستلزمه من الدلالة علي ضرورة عبادة صاحبه. وكأن السورة الكريمة ، وقد بلغت هذا المقام ، قد آن لها أن تعبر بهذا الاسم الكريم بعد أن فنّدت شبهات المشركين ، وأبانت مدي اغترارهم برحمة الله وحلمه عليهم. ولعل من الصحيح تقرير أن مغايرة سياق كلمة "الرحمن" في الموضع الأخير لسياقاتها فيما سبقه[١] – يناسب التعبير بلفظ الجلالة فيما أخبر به عيسي – عليه السلام – من العقيدة الحَقّة ، و ما جاءت به الآية ٨٧ : "و لَئِن سألتهم من خلقهم؟ لَيَقولُنّ : الله...".

وقد جاءت كلمة "ربّ" ثلاث عشرة مرّة ، مضافة إلى الضمير غالبا ، وإلى الظاهر مرّات ثلاثًا. وتخللت معظم قضايا السورة ؛ للحاجة إلى استعمالها حيث لا يغني غيرها. فهي تعني تولّي الأمر ، والاعتناء بالشأن و تعهده[٢]. و من هنا كان مجيئها في الحث علي شكر نعمه تعالى ، واتخاذها دافعا لتذكر العودة إليه، و تذكر أنه يشمل الناس مؤمنهم وكافرهم برزقه وهباته ، ويدّخر نعيم الآخرة للمؤمنين. وهو سبحانه ربّ العالمين ، قد دعا موسي فرعون إلى عبادته ، كما دعا عيسي بني إسرائيل إلى مثل ذلك. وله وحدَه سبحانه الأمر يوم الحساب ، حين يلجأ المشركون إلى

(١) إذ هو سياق محاجّة ، و نفي لما أشار إليه فعل الشرط في الآية ، وهي : "قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين".

(٢) قال البقاعي : "ادع لنا ربَّك" أي : المحسن إليك بما يفعل معك من هذه الأفعال التي نهيتنا بها ، إكرامًا لك". نظم الدرر ١٧ /٤٤٥.

خازن النار ؛ ليدعوه أن يَقضِي عليهم. وهو سبحانه مالك الكون ، ما ظهر منه وما خفي. وإليه مَفزَع رسله، يدعونه عندما يُعرِض الناس عنهم ، أو يُؤذونهم.

- وكُرّرت كلمة "الحَقّ" خمس مرّات ، كانت في الثلاث الأولي منها بمعني "القرآن" غالبًا(١). ودلت فيما بقي علي مضادّ الباطل ، أو غير الصِّدق(٢). وكان استعمالها في هذا الموضع ؛ لاستحضار ما سبق في أوائل السورة من التشنيع علي المشركين فيما قالوا به حول طبيعة خَلْق الملائكة : " وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، أشَهِدوا خَلْقَهم؟"
- وكرّر تركيب "رحمة ربّك" في الآية ٣٢. وقد أكسب السياق الكلمة الأولي معني إضافيّا ، هو بسبب وثيق من معناها المعجمي الذي هو الفعل النابع من الشفقة بالأشخاص ، والرفق بهم وبالأشياء. فالنبوّة أو الرسالة هي القمة في مجال الرحمة بالبشر. وقد جاء التكرار ليؤكد ذلك.
- وجاءت بعض الكلمات فيما يشبه التكرار ؛ لاختلاف في بنيتها بين التعريف والتنكير تارة ، وبين الجمع والإفراد تارةً أخري.

ا) فمن الأول : الكتاب ، كتاب – الذكر ، ذِكْر – المُبِين ، مُبين – حكيم ، الحكيم – شيطان ، الشيطان – قَرِين ، القرين – العذاب ، عذاب.

نري ارتباط المكرّر بما سبقه من حيث المعني المعجمي.

ويقرب من ذلك وحدة المجال الدلالي كما هو الحال فيما بين الكلمتين الأوليين وتكرارهما. ويقرب أمر تالييهما أن يكون كذلك.(٣) وتكاد وحدة المجال الدلالي أن تجمع أيضًا بين كلمتي

(١) قال الرازي أنها في قوله :"لقد جئناكم بالحق" بمعني : الإسلام أو القرآن. تفسيره ٢٧ /٢٢٧.

(٢) عقب أبو السعود العمادي عبلي "ولكن أكثركم للحق كارهون؟ بقوله : "أيّ حقّ كان... أمّا الحقّ المعهود ، الذي هو التوحيد ، أو القرآن ، فكلهم كارهون له ،مشمئزّون منه". تفسيره ٥/٩٥.

(٣) فيراد بهما القرآن ، أو ما يترتب علي تنزله من التذكير والإتذار ، أو رفعة الشأن للتمسك به.معاني القرآن للنحاس ٦ / ٣٣٤ ، ٣٣٥ عند حديثه عن الكلمة أول السورة. و ذكر أبو السعود أنها في " و أنه لذكر لك ولقومك" بمعني : شرف عظيم. تفسيره /٥/٨٧.و قال البقاعي : "عبر عن الشرف بالذكر للتنبيه علي أن سببه الإقبال علي الذكر ، وعلى ما بيّنه و شرعه ، والاستمساك به، ،والاعتناء بشأنه". نظم الدرر١٧/٤٣٦.

(حكيم ، الحكيم). فقد وردت أولاهما في وصف القرآن الكريم ، في أول السورة. وجاءت الأخيرة في وصفه تعالى في آخرها في سياق الحديث عن تنزيهه ، كما سبق. والحكيم الذي لكل شيء عنده علة ، و"كل شيء عنده بمقدار"[١] – قد أنزل كتابه الحكيم ، الذي هو كلامه ، تعالى. وقد وصف القرآن بهذا الوصف في غير موضع منه ، غير ما جاء في أول السورة الكريمة.[٢] وهو ما يمثل ترابطا بين آياته وسوره.

ويغلب أن يرتبط المكرّر هنا بما سبقه أيضًا بأن يتبادل التبعية[٣] معه. وربما كان التعريف دليلا علي هذه التبعية ، كما في :

- "ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نُقَيّض له شيطانا ".
- "ولا يصُدّنّكم الشيطان".
- "...فهو له قرين".
- "...فبئس القرين".

فالكلمة الأولي هي الثانية ، سبقتها (أل) العهدية ، وإن كان يمكن أن يكون (الشيطان) مرادا به جنس الشياطين.

وتتمثل هذه التبعية في علاقة المشابهة أو الاشتمال بين اللفظين ، كما في (الكتاب ، كتاب). فالأولي وصف بها القرآن في مطلع السورة ، ثم جاءت الآية ٢١من بعد متسائلة عما إذا كان الله قد آتي المشركين كتابًا ؛ ليستمسكوا به. بل إن الآية لتشير إلى الكتاب الأول بالضمير : "أم آتيناهم كتابا من قبله...؟"

---

(١) الآية ٨/ الرعد.

(٢) كما في الآيات ٥٨ / آل عمران ، ١ / يونس ، ٢/ يس. و قال النحاس أن الكلمة هنا بمعني : محكم. معاني القرآن ٦/ ٢٣٤.

(٣) لعل من الواضح أن التبعية هنا ليست بمعناها النحوي.

ونجد التطابق أو الاشتمال فيما بين كلمتي (العذاب – عذاب). فعذاب العاشي عن ذكر الرحمن وقرينه – وهو ما تشير إليه الكلمة المعرفة بـ (أل) – هو جزء من عذاب جهنم الذي جاءت الكلمة بغير (أل) في سياق الحديث عنه. ولعل في تعريف الكلمة الأخيرة بإضافتها إلى جهنّم ما يجعلها تعادل الكلمة الأولي في الدلالة. علي أن معني التركيب "عذاب جهنم" يظل أعمّ في السعة والشمول ليكون عذاب العاشي وقرينه جزءًا ، أو شيئًا منه ، وإن دلّت (أل) في أول الكلمة علي عظم هذا العذاب ؛ لما لها من الدلالة علي معني (كُلّ).

تبقي كلمتا (المبين ، مبين). ووقعتا في مجالات ثلاثة ، كان التناقض فيما يترتب علي الوصف بهما ، في مجالين من هذه المجالات ، حسب السلوك الذي يتبعه المخاطَب – سببًا لاستعمال الوصف معرّفًا في أولهما ، ومنكّرًا في الآخر. وقد كان لذلك دوره في الارتباط بين ثلاث من قضايا السورة الكريمة.

لقد جاءت الكلمة الأولي في وصف الكتاب ، أما الثانية فجاءت في وصف الضالّ ، الذي ليس يُطلب من الرسول أن يهديه، وكذا في وصف الشيطان ؛ للتحذير من صدّه. فالوصفان قد كشفا بجلاء طريق الهدي وطريق الضلال. والأول هو ما يرشد إليه "الكتاب المبين" ، أمّا الثاني فهو طريق الضالين ، أيًّا كأن السبب في ضلالهم. وهو طريق الشيطان ، الذي هو "عدوٌّ مبينٌ" ، يوقع الضالين في حبائل صدّه إياهم عن السبيل الحقّ ، الذي هو سبيل الكتاب المبين.

أمّا المجال الثالث فيأتي فيه الوصف منكّرا ، دالا علي المعني اللغوي نفسه ، في وصف ضعف الإناث عن الإبانة في الخصام.

ب) وجاء الاختلاف بين الجمع والإفراد في : عِباد ، عَبْد – آيات ، آية – آلهة ، إله.

وقد أعادنا المفرد الأول الوارد في الحديث عن عيسي إلى جمعه الموصوف به الملائكة في بداية تفنيد عقائد المشركين في القضية الثانية. وربط المفرد الثاني آيته بسابقتها في ذكر قصة موسي مع فرعون وملئه. علي أن ما بين المفرد الأخير وجمعه السابق ليس إلا العلاقة الصرفية ،

والاشتراك في جزء من المعني. وتكرّر المفرد الأخير في الآية التي جاء بها ، وكان بمعني الكلمة المشتقة (معبود).

٥- و استعمل التضاد كما في الأمثلة التالية :

- السموات ، الأرض – السماء ، الأرض.
- بنات ، البنين.
- الحياة الدنيا ، الآخرة.
- الأخلاّء ، عدُوّ.
- الجنّة ، جهنّم.

والتضاد يبرز المعاني ، ويدعو إلى الموازنة بين الأشياء ، وهو ما قُصِد إليه باستعماله في كل هذه المواضع. وغلب مجيء الكلمة وضدها في الآية الواحدة ، وهو ما خالفته الكلمتان الأخيرتان. ومجيء "الدنيا" وصفًا للحياة التي يحياها المخاطبون فيه مزيد انتقاص لشأنها وشأنهم لكَلَفهم الشديد بشأن امتلاك زينتها وزخرفها. إنهم يغفلون عن "الآخرة" التي يكفي أن تذكر بهذا الاسم وحده ؛ لأنها "الحيوان ، لو كانوا يعلمون".(١)

٤- التماسك الدلالي :

أورد – فيما يلي – جمل السورة ، وعباراتها حسبما تنوعت إليه من تسع علاقات ، لاحظت أنها تربط بينها.

(أ) السببية :

و هنا تكون ثمّة نتيجة ، تترتّب علي السبب المتقدم ، كما نري فيما يلي :

السبب	النتيجة
١ – "أم آتيناهم كتابًا من قبله"	"فهم به مستمسكون؟" (٢١).
٢ – "بل قالوا:إنا و جدنا..."	"وإنا علي آثارهم مهتدون"(٢٢).

(١) الآية ٦٤/ العنكبوت.

٣- "...ما أرسلنامن قبلك..."	"إلاّ قال مترفوها...مقتدون"(٢٣).
٤- "قال:أولو جئتكم بأهدي...؟"	"قالوا:إنا بما أرسلتم به كافرون"(٢٤).
٥ ،٦- "قالوا:إنا بما أرسلتم..."	"فانتقمنا منهم؛فانظر..."(٢٥,٢٤).
٧- "و لمّا جاءهم الحقّ"	"قالوا:هذا سحر،وإنا..."(٣٠).
٨- "و مَنْ يَعْشُ عن ذِكْر الرحمن"	"نُقَيّضْ له شيطانا..."(٣٦).
٩- "أفأنت تُسمع الصُّمّ أو تهدي	"فإمّا نذهبنّ بك فإنا منهم
العُمي...؟ (٤٠).	منتقمون،أو نرينّك الذي وعدناهم..."(٤١ ، ٤٢)[١].
١٠- "وإنه لَذِكْرٌ لك ولقومك"	"وسوف تُسأَلون"(٤٤).
١١-"ولقد أرسلنا موسي..."	"فقال:إني رسول ربّ العالمين"(٤٥).
١٢-"فلمّا جاءهم بآياتنا"	"إذا هم منها يضحكون"(٤٧).
١٣-"وما نريهم من...وأخذناهم	"وقالوا يا أيّها الساحر،ادعُ لنا
بالعذاب؛لعلّهم يرجعون"	...ربّك...إننا لَمهتدون"(٤٨ ،٤٩).
١٤-"وقالوا:يأيها الساحر..."	"فلمّا كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكُثُون"(٤٩ ،٥٠).
١٥- "فلمّا كشفنا عنهم العذاب"	"إذا هم ينكُثُون"(٥٠).
١٦- "أمْ أنا خيرٌ من هذا الذي هو	"فلولا أُلقِي عليه أَسوِرة من
مَهِينٌ،ولا يكاد يُبِين؟"[٢]	ذَهَبٍ،أو جاء..."(٥٣,٥٢).

(١) ذكر البقاعي أن ما في الآيتين مسبّب عن سابقتهما لدلالتها علي اليأس من صلاح الكافرين. و هو ما يترتب عليه تمني الراحة بالموت."ولأنه – صلي الله عليه و سلم – مشرّف عنده – سبحانه وتعالى – معظم لديه ؛ فذهابه ممّا يستبعد...وكذا إراءته ما توعّدهم به ؛ لأن المظنون إكرامهم لأجله" نظم الدرر ١٧ /٤٣٤. و انظر ما سبق عن الربط بين الآيتين وما بعدهما بالواو ، وكون ذلك مندرجا تحت ربط السبب بنتيجته.

(٢) قدّر البقاعي بعد الآية ما يقيد ذهاب فرعون إلى كون موسي مدّعيًا للرسالة ، و جعل ذلك سببًا لما أوردته الآية الثانية من اقتراحه. نظم الدرر١٧/٤٤٩.

١٧- "فاستخفّ قومه"	"فأطاعوه"(٥٤).
١٩,١٨-"فلمّا آسفونا"	"انتقمنا منهم؛فأغرقناهم[١] أجمعين"(٥٥).
٢٠- "فأغرقناهم أجمعين"	"فجعلناهم سلَفًاومثلا للآخِرين" (٥٦,٥٥)[٢].
٢١- "و لمّا ضُرِب ابن مريم مثلا"	"إذا قومُك منه يصِدّون"(٥٧).
٢٢- "وإنه لَعِلْمٌ للساعة"	"فلا تمتَرُنّ بها ، واتّبعونِ..."(٦١).
٢٣-"إن الله هو ربّي وربكم"	"فاعبدوه ..."(٦٤).
٢٤-"...فاعبدوه،هذا صراط مستقيم"	"فاختلف الأحزاب..."(٦٤-٦٥).
٢٥-"فاختلف الأحزاب من بينهم"	"فويل للذين ظلموا..."(٦٥).[٣]
٢٦- "ياعِبادِ ، لا خوفٌ عليكم اليوم"	"ولا أنتم تحزنون" (٦٨).
٢٧- " لا يُفَتّر عنهم"	"وهم فيه مُبْلِسون" (٧٥).
٢٨- "لقد جئناكم بالحق"	"ولكنّ أكثركم للحق كارهون"(٧٨).
٢٩- "قل:إن كان للرحمن ولَدٌ"	"فأنا أول العابدين"(٨١).
٣٠-"... عما يصفون"	"فذرهم يخوضوا..."(٨٣,٨٢)[٤].
٣١- "و لئن سألتهم : من خلقهم؟"	"لَيَقولُنّ : الله"(٨٧).

(١) كانت جملة (انتقمنا منهم) نتيجة لما قبلها ، وسببًا لما بعدها ، وإن كان الظاهر أن جملة "فأغرقناهم" يقتصر دورها علي التوضيح والبيان لما سبقها. ذكر الرازي أن الانتقام بمعني إرادة العقاب لجرم سابق. و كل من الانتقام و الأسف بمعني الغضب – من المحال في حق الله، تعالى. و لذا يؤوّلان. مفاتيح الغيب ٢٢٠/٢٧. وعقّب البقاعي في نظم الدرر٤٥٢,٤٥١/١٧ علي قوله (أنتقمنا منهم) بقوله : "أي أوقعنا بهم علي وجه المكافأة لما فعلوه برسولنا ، عليه السلام ،عقوبة منكرة مكروهة كأنها بعلاج".

(٢) ونظم الدرر٤٥٢/١٧.

(٣) والسابق ٤٧٤ ، ٤٧٥ عن هذا المثال وسابقه.

(٤) وفي السابق أيضًا ٤٩٠ أنه – بعد بيان الحق متمثلا في كونه سبحانه مالك كل شيء في الكون "عرّف أنهم فاعلون بوضع الأشياء في غير مواضعها فعلَ الخائض اللاعب ؛ فقال مسبّبًا عن ذلك "فذرهم".

٣٢- "لَيَقولُنّ : الله" "فأني يؤفَكون؟"(٨٧).

٣٣-"وقيله:ياربّ:أن هؤلاء قوم لا يؤمنون" "فاصفح عنهم و قل:سلام"(٨٩,٨٨).

٣٤- "وقل : سلام" "فسوف يعلمون"(٨٩).

لا شك أن ترتب النتائج علي أسبابها السابقة مبني علي ما للأسباب من المعني المستتبع لتلك النتائج. وغير غريب أن تلي معظم هذه النتائج الفاء العاطفة الدالّة علي الترتيب والتعقيب.

ولنا أن نُلحق الواو بالفاء في سبقها جمل النتائج وعباراتها هنا ، وإن كان سبق الفاء للنتائج قد بلغ عدد مرّاته أكثر من ضعفي عدد مرّات سبق الواو لها. ولعل وقوع الفاء في هذا الموقع ، وكذا استحضار الحال ، أو السياق للجملة أو العبارة – جعلا البعض يذهب إلى دلالتها علي الترتيب كالفاء. وهكذا يكون ما بعد الواو نتيجة لما قبلها ؛ لدلالة السياق علي ذلك.

وقد تلت (لكنّ) الواو مرّةً فكانت مؤكّدة لوقوع النتيجة ، ومنازعة للواو في وظيفتها هنا.

ويأتي الشرط ليكون استعماله للربط بين السبب والنتيجة ، تاليا لاستعمال الفاء. وجاءت (إذا) الفجائيّة ثلاثَ مرّات سابقةً جواب الشرط ؛ للدلالة علي غرابته ، وإرادة التعجيب منه.

واقترن القسم بالشرط مرّةً ، وكان الجواب للقسم لتقدّمه.

وسبقت (إلاّ) النتيجة مرّة في أسلوب الحصر في غير الكلمة المفردة.

وجات النتيجة مرّة واحدة مجرّدة من أداة تسبقها ، أو تسبق السبب ؛ ليكون ذلك ممهّدًا لانتظارها. و كان التعويل هنا علي المعني والسياق. وقد كان سياق حوار ، أو استفهام وإجابة.

لقد وجدنا مواضع تلك العلاقة المعنوية تدور حول :

– استنكار اتباع الأسلاف ، علي ماكانوا عليه من الضلال والمعاندة ؛ لأجل عدم اتباع الحق.

– ترتّب العقاب ، أو التحذير ، علي اتباع غير طريق الحق ، وكذا ترتب المساءلة علي عدم أداء أمانته.

– تحذير المكذبين ممّا ينتظرهم ، ومقابلة ذلك بإظهار المزيد من البشري لمن هم علي النقيض.

– الإعراض عن الكافرين ، وإظهار المزيد من التقريع لهم ، بعد ملاقاتهم مصيرهم المحتوم.

ولا شك في أن معالجة هذه المعاني باستعمال علاقة السبب والنتيجة ، يتحقق بها غاية الخطاب من تحذير المخاطبين من أسباب الوقوع في سيّئ النتائج ، وترغيبهم في تحصيل أسباب الحسَن منها. ولقد غلب التحذير علي هذه المواضع. ولذا جاء بعضها ممثّلا للإطناب في تصوير مواقف بعض المكذبين حال استدراجهم.

ب) **التعليل** :

هنا تذكر العِلّة عقب حقيقة تسبقها ، أو توجيه. ويأتي التعليل مبينًا الحكمة من وراء هذه الحقيقة واتباع هذا التوجيه. وفي ذلك مزيد اجتذاب للمخاطب للإصغاء إلى ما يُلقَي إليه.

وأورد – فيما يلي – الجمل والعبارات ، والآيات المتتالية ، حسب هذه العلاقة الدلالية ، ثم أتبعها بالتعليق عليها.

المعلل له	العلّة
١- "إنا جعلناه قرآنا عربيًّا"	"لعلّكم تعقلون" (٣).
٢- "أفنَضرب عنكم الذّكر صَفحًا"	"أن[١] كنتم قومًا مسرفين؟"(٥).
٣-"وجعل لكم من الفُلْك..."	"لتستووا علي ظهوره.."(١٣,١٢).
٤-"وجعلها كلمة باقية في عَقِبه"	"لعلّهم يرجعون" (٢٨).
٥-"ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات"	"ليَتّخذ بعضهم بعضًا سُخْرِيًّا"(٣٢).
٦-"فاستمسِك بالذي أوحِي إليك"	"إنك علي صراط مستقيم"(٤٣)[٢].
٧- "وما نريهم من آية...بالعذاب"	"لعلّهم يرجعون" (٤٨).
٨-"فاستخفّ قومه؛فأطاعوه"	"إنهم كانوا قومًا فاسقين" (٥٤).[٣]
٩- "... واتّبِعونِ"	"هذا صراط مستقيم" (٦١).

(١) سبق أن قرّرنا تقدير لام التعليل قبل (أن) عند دراسة مواضع الحذف.

(٢) ونظم الدرر ١٧/٤٣٥.

(٣) والسابق ٤٥١.

١٠- "ولا يَصُدّنّكم الشيطان" "إنه لكم عدوٌّ مبين"(٦٢)[١].
١١- "...قال:قد جئتكم بالحكمة" "ولأبيّن لكم بعض..."(٦٣).
١٢- "...جئتكم بالحكمة...فيه" "فاتّقوا الله ، وأطيعونِ"(٦٣).
١٣-"...فأنا أوّل العابدين" "سبحان...عَمّا يَصِفونَ"(٨٢,٨١).

كان طبيعيًّا أن يغلب تصدّر (لعلّ) ، ولام التعليل الجمل المعلِّلة ، وإن كانت تلك الغلبة ليست كبيرة.

وتأتي جملة التعليل اسمية مؤكَّدة بـ(أن) ثلاث مرّات[٢]. والتأكيد هنا ضروري لإزالة ما قد يتنازع نفوس المخاطبين لما يلقونه ، أو يتصورونه ؛ فيؤثر في أخذهم بما يوجّهون إليه. والمعني والسياق كلاهما يدلان علي أن هذه الجمل علل لسابقاتها. والأمر نفسه صادق علي مثالين آخرين ، جاء أولهما جملة اسمية ، لم يسبقها مؤكّد ، والثاني جملة فعلية ، بُدِئت بالمصدر. ولم تقترن الأولي بالمؤكد لسبقه متقدّمًا علي مثل ما يشير إليه مضمونها ، أو ما يقرب منه.

وجاءت الجملة المصدّرة بالمصدر معلّلةً لسابقتها الشرطية ظاهرا[٣]، والخبرية حقيقة ، أو دلالة. فكان المراد بها : أعتقد أن ليس للرحمن ولد.[٤]وبذا تكون الجملة تقدّمًا بالخطاب السابق

---

(١) والسابق ٤٦٢,٤٦١.

(٢) يمكن أن نضم إليه ما في الآية : "ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم إنكم في العذاب مشتركون" علي قراءة كسر همزة (إن). و هي لابن عامر. وتكون جملة "أنكم في العذاب مشتركون" هي العلة لما قبلها. قال أبو علي الفارسي :"وانفرد بذلك بأن الفاعل مضمر ، كما في مثل "فزادهم إيمانا"(آل عمران /١٧٣). و كأن الفاعل هو التبرّؤ الذي دلّ عليه "يا ليت بيني وبينك بعدالمشرقين" الحجة٦/١٥٥، ١٥٦.

(٣) صدر الآية :"قل إن كان للرحمن ولد فأنا...".

(٤) وقد توقف المفسرون عند الآية ؛ لما رأوه من صعوبة الأخذ بظاهرها ؛ لما يفيده هذا من احتمال شك النبي في تنزّه الله عن الولد. فقيل أن (إن) نافية ؛ فيكون المعني : ما للرحمن ولد. ولم يرتض ذلك ابن قتيبة. وقيل إن (العابدين) بمعني : المنكرين أو الغاضبين انظر :تأويل مشكل القرآن ،لابن قتيبة ٣٧٣، و يفهم ممّا تناول به الرازي الآية أنها نافية لمضمون الشرط ، وإن بدا خلاف هذا من ظاهر الجواب. مفاتيح الغيب =

نحو تعليل له ، يمثل تعبيرًا صريحًا عن التنزيه الشامل لله تعالى عن كل نقص ، بعد أن جاء هذا التنزيه ضمنيًّا في الشرط الحجاجي السابق.

وجاءت جملة التعليل مسبوقة بالفاء مرّةً واحدةً. ويتضح من السياق أنها لهذا الغرض.

ج) <u>التفصيل بعد الإجمال</u> :

هنا نجد التمهيد لتناول أمر ، أو قضية بإشارة مجملة إليهما ، تتضمنها الجملة الأولي ؛ لتأتي الجملة التالية مفصّلة هذا الإجمال. وفي تناول المعني عبر هاتين المرحلتين تقرير قوي له ، وتأكيد له في نفس متلقّيه. وهذه هي أمثلة هذا النمط من أنماط العلاقات الدلالية بين الجمل و الآيات في السورة.

الإجمال	التفصيل
١-"مَن خَلَق السموات والأرض ...خلقهنّ العزيز العليم"(٩).	"الذي جعل لكم... والأنعام ما تركبون"(١٠- ١٢)[١]
٢- "واسأل من أرسلنا... من رسلنا"	"أجَعَلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون؟" (٤٥).
٣- "... إذا هم ينكُثُون"(٥٠).	"ونادَي فرعون...مقترنين" (٥١-٥٣).
٤-"...إذا قومك منه يَصِدّون". (٥٧)	"وقالوا :أآلهتنا خيرٌ أم هو؟" (٥٨)
٥-"ولمّا جاء عيسي بالبينات"	"قال:قد جئتكم بالحكمة...فاتّقوا الله وأطيعون.إن الله هوربي وربكم...مستقيم" (٦٤,٦٣).
٦- "فويلٌ للذين ظلموا من عذاب يوم أليم"(٦٥).	"هل ينظرون إلا الساعة... الأخلاّء...إلاّ المتّقين"(٦٧,٦٦).

للرازي٢٧/٢٣٠,٢٣١. و قد عرض البقاعي للآية بما يفيد أنها كالتنزل مع المشركين لتفنيد عقيدتهم..انظر :نظم الدرر ١٧/ ٤٩٧,٤٩٨.

(١) قال البقاعي أن الآيات جاءت بما يناسب صفتي العزيز العليم اللازمتين من إجابة الكافرين ، وإن لم تتضمنهما صراحة. والتفت إلى خطابهم توبيخا لهم و تذكيرا بالإحسان "و تفصيلا للقدرة". نظم الدرر١٧/٣٨٩.

٧- "يا عِبادِ..."(٦٨). "الذين آمنوا بآياتنا، وكانوا مسلمين".(٦٩)

٨-"ياعبادِ لا خوف عليكم ...مسلمين"(٦٩,٦٨). "ادخلوا الجنّةَ أنتم وأزواجكم تُحبَرون"(٧٠)[١].

٩-"...أنتم وأزواجكم تُحبرون" "يُطاف عليهم...تأكلون". (٧١ – ٧٣)

١٠-"إن المجرمين في عذاب جهنّم خالدون"(٧٤). -"لا يُفتّر عنهم[٢]...."-"و ما ظلمناهم ..."

-"و نادوا : يا مالك..."

-"لقد جئناكم..."(٧٥- ٧٨).

١١- "...فإنا مُبرِمون"(٧٩). "أم يحسَبون...يكتبون"(٨٠).

وغالبًا ما تكون إحدي وحدات الجملة في أمثلة الإجمال، هي محور التفصيل. وقد تنضم إليها أخري ، علي ما نجد في المثال الأول. إن المخاطبين كانوا بحاجة بمزيد تذكير لهم بنعم الله "العزيز العليم" عليهم. وكان ثمّة حاجة لبيان فحوي السؤال ، في المثال الثاني. والأمر نفسه صادق علي الوحدات : ينكُثون – يصِدّون – البيّنات – عباد – تُحبَرون – خالدون. علي أن هذه الوحدات لا يمكن إفرادها عن جملتها ، أو عبارتها ، كما هو غني عن القول. بل إن بناءها الصرفي يربط بينها وبينهما غالبًا. ولقد جاء التفصيل في المواضع الباقية ذا صلة قوية بما سبقها مجملا فيه ، من عبارة أو آية ، أو اثنتين.

ولا شك أن لهذا التفصيل دوره في تجلية المعني ، أو الفكرة، والإزراء بالمشركين ، وتهديدهم. كذلك هو يوضح مآلهم ؛ ليحذروه ، ويوضح ما ينتظر المؤمنين من النعيم ؛ ليثبتوا علي إيمانهم وليرغب فيه غيرهم.

---

(١) نظم الدرر ١٧ /٤٧٧.

(٢) قال الرازي : "قوله : "خالدون" يدل علي الخلود ، و فوله أيضا "لا يفتّر عنهم" يدل علي الخلود و الدوام". تفسيره ٢٢٧/٢٧.

د) <u>الإجمال بعد التفصيل</u> :

وهنا يحدث عكس ما سبق ؛ إذ يتطلب السياق الإجمال ؛ للتحول عن الكلام بعد تمامه ؛ فيُحتاج إلى لَمحة تجمع أطرافه. ويكون ذلك دائما للرغبة في الإعراض عمّا يكون الحديث بصدده. و جاءت تلك العلاقة بين الجمل في مواضع خمسة ، هي:

التفصيل	الإجمال
١ – "...نحن قسمنا بينهم ...سُخْرِيًّا"	"وإن كلّ ذلك لمّا متاع
"ولولا أن يكون الناس أمّةً..."	الحياة الدنيا" (٣٥).
٢–"ولبيوتهم أبوابًاوسرُرًا..."	"وإن كل ذلك لمّا متاع...". (٣٢–٣٣).
٣ – "أفأنت تُسمِع الصّمَّ،أو تهدي العُمْي"	"ومَن كان في ضلال مبين"(٤٠).
٤–"ونادي فرعون في قومه	"فاستخفّ قومه ؛ فأطاعوه".(٥٤)
...مقترنين"(٥١– ٥٣).	
٥–"يُطَاف عليهم بصحاف من	"وفيها ما تشتهيه الأنفس ،
ذهب و أكواب"	وتَلَذّ الأعين..." (٧١).[١]

ويتضح أن ثمّة ما يقتضي الإجمال في كلّ ممّا سبق. فهو إمّا أن يكون متطلّبًا للتقييم ، أو الإتيان بما يندرج تحته المفصّل سابقًا ، أو بيان ما يفضي إليه.

هـ) <u>التأكيد</u> :

الجملة،أوالآية	تأكيدها
١–"أفنضرب عنكم...مسرفين"(٥).	"وكم أرسلنا من نبي..."
	"وما يأتيهم من نبيّ..."
	"فأهلكنا أشد منهم..."(٦–٨)
٢–"ما لهم بذلك من علم"	"إن هم إلاّ يَخرُصُون"(٢٠).

(١) نظم الدرر ١٧ / ٤٧٩.

"أم آتيناهم كتاباً...مستمسكون؟"(٢١).

٣-"نحن قسَمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا" "ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات" (٣٢).

٤- "ورحمة ربك خير ممّا يَجمَعون". (٣٣) "ولولا أن يكون الناس أمّة ...يظهرون،ولبيوتهم...وزخرفًا" (٣٤ ، ٣٥)

٥- "وإنهم لَيَصُدّونهم عن السبيل" "ويحسبون أنهم مهتدون"(٣٧).

٦-"حتّي إذا جاءنا قال... فبئس القرين"(٣٨) "ولن ينفعكم اليوم...مشتركون"(٣٩).

٧- "فإنا منهم منتقمون"(٤١). "فأنا عليهم مقتدرون" (٤٢).

٨- "ولمّا جاء عيسي بالبيّنات" "قال : قد جئتكم بالحكمة"(٦٣).

٩- "...فاتّقوا الله" "وأطيعونِ" (٦٣).

١٠- "تأتيهم بغتةً" "وهم لايشعرون" (٦٦)[١].

١١-"يا عبادِ،لا خوف عليكم اليوم" "ولا أنتم تحزنون"(٦٨)[٢].

١٢- "الذين آمنوا بآياتنا" "وكانوا مسلمين" (٦٩).

١٣- "وفيها ما تشتهيه الأنفس" "وتلَذّ الأعين" (٧١).

١٤- "وما ظلمناهم" "كانوا هم الظالمين"(٧٦).

١٥ – "أم يحسبون أنا لا نسمع سرّهم و نجواهم؟!" "بلي ، ورسلنا لديهم يكتبون" (٨٠).

١٦-"وهو الذي في السماء إله ...وهو الحكيم العليم"(٨٤). "وتبارك الذي له ملك... وإليه تُرجَعون"(٨٥).

(١) وقد علل الرازي لتتابع الجملتين قائلا : "يجوز أن تأتيهم بغتة وهم يعرفون بسبب أنهم يشاهدون". تفسيره ٢٧ /٢٢٤.

(٢) لا خوف عليهم من أهوال الآخرة ، ولا يتجدد لهم حزن علي أمر مضي لأنهم لن يفوتهم شيء مما يسَرّون به. نظم الدرر ٤٧٧/١٧. وقد سبقت الآية مثالا للسبب والنتيجة ، وهو ما لا يبعد الوقوف علي علّته. فمن قد يعرض له الجزن يُخاف عليه ، وهو ما سبق نفيه. و قد تعاطفت الجملتان لتناسبهما.

١٧- "...فأني يؤفَكون؟" (٨٧). "وقيله...إن هؤلاء قوم لا يؤمنون" (٨٨).

١٨-"فذَرهم يخوضوا ويلعبوا" "فاصفح عنهم..."(٨٩,٨٣).

١٩- "حتّي يلاقوا يومهم الذي يوعَدون" (٨٣). "...فسوف يعلمون"(٨٩).

٢٠- "فاصفح عنهم" " وقل : سلام" (٨٩).

يراد بالتأكيد تقوية المعني السابق للجملة أو العبارة أو الآية ، بأن يليه في الآية نفسها ، أو في الآية التالية ، علي ما وقع في غالب الأمثلة السابقة – من الآيات ،أو الجمل والعبارات ما يكون له ذلك الأثر. وقد وقع ذلك في مثالي ١٧ ، ١٨ بين عبارتين وجملتين غير متواليتين.

ولا يعني التأكيد مجرّد تكرار المعني السابق ، بل يعني البناء علي هذا المعني، والإتيان بما يشترك معه ، ويزيد عليه بما يضيف إلى المعني السابق. وتُتّخَذ وسائل لذلك ، هي :

- التفصيل ، كما في ١ ، ٣.
- إيراد المعني بأكثر من طريقة. وهذا هو الغالب.
- تقديم الدليل المؤكّد لما في الجملة السابقة،كما في٤ ،٥.
- إيراد النتيجة المترتبة علي الجملة الأولي ، كما في ٩.

و) <u>التكرار</u> :

و نجده في الأمثلة التالية :

الجملة	**التكرار**
١ -"إنا وجدنا آباءنا علي أمّة وإنا علي آثارهم..."(٢٢).	وكذا في (٢٣).
٢- "فانتقمنا منهم" (٢٥).	"...انتقمنا منهم" (٥٥).
٣ - "جاءهم الحقّ" (٢٩).	وكذا في التالية.
٤- "هذا صراط مستقيم"(٦١).	وكذا في (٦٤).

والتكرار يربط بين الآيات ، ويؤكّد المعني فضلا علي ما له من دلالات معنوية كالاستخفاف بمسلك المخاطبين ، كما في ١، وإظهار تماثل النتيجة أو النهاية ، كما في ٢، أو وحدة الاتجاه والغاية ، كما في ٤ ؛ حيث إن ما جاء به محمد صلي الله عليه وسلم حول العقيدة لا يختلف عما جاء به عيسي عليه السلام.

ز) <u>التضاد أو ما يشبهه</u> :

وهنا نجد التضادّ بين جملتين ؛ ليزيد اتضاح المعني ، وتأكيده.

الجملة	**المضادّ ، أو ما يشبهه**
١ – "سَخّر لنا هذا"	"وما كنّا له مُقْرِنين" (١٣).
٢ – "خلق الأزواج كلّها"	"وإنا إلى ربنا لمنقلِبون"(١٤).
٣–"قالوا:هذا سِحْرٌ ،وإنا به كافرون"(٣٠).	"وقالوا: لولا نُزّل هذا القرآن... عظيم"(٣١).
٤–"فإمّا نذهَبَنّ بك..."(٤١).	"أونُرِيَنّك الذي وَعَدناهم...". (٤٢)
٥–"وتلك الجنّة التي أورثتموها بما كنتم تعملون"(٧٢).	"إن المجرمين في عذاب جَهَنّمَ خالدون"(٧٤).
٦– "لَيَقْضِ علينا ربّك"(٧٧).	"إنكم ماكثون"(٧٧).
٧– "وتبارك الذي...وإليه تُرجَعون" (٨٥).	"ولا يملك الذين يدعون من دونه...يعلمون"(٨٦).

والتضاد هنا بين الجملة ، أو العبارة ، أو الآية ، وما يقابلها. وقد يبدو الأمر في الموضع الثاني علي غير هذا ؛ حيث يبدو واضحًا تحقق التضادّ بين (سِحْر) و(هذا القرآن). لكنّ ظلال المعني في المقابل المضاد ، يمكن أن تجعل المقابلة بين معنيي مثالي الموضع ، بكامل بنائهما اللغوي.

ح) <u>التعقيب و التحليل</u> :

يتضح ذلك فيما يلي :

الجملة ، أو الآية	**التعقيب ، أو التحليل**

١ –"ما ضربوه لك إلاّ جَدَلاً"	"بل هم قومٌ خَصِمون" (٥٨).
٢– "...إذا قومك منه يَصِدّون" (٥٨)	–"إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مثلا..."(٥٩).
	–"ولو نشاء لَجعلنا منكم ملائكة في الأرض..."(٦٠).
	–"وإنه لعِلْمٌ للساعة..."(٦١).
٣–"لا يُفتّر عنهم وهم فيه مبلِسون" (٧٥).	"وما ظلمناهم ، ولكن كانوا هم الظالمين" (٧٦).
٤–"أم أبرمو أمرًا؟"	"فإنا مُبرِمون" (٧٩).

وهكذا نري أن التعقيب يوقفنا علي حقيقة الأمر الذي يشير إليه معني الجملة أو الآية السابقة عليه، كما يزيل الأوهام التي تكون لدي المخاطبين، علي ما قد تفيده فحوي المعقَّب عليه.

ط) <u>الغائيّة</u> :

ونجدها متحققة في الأمثلة التالية:

الجملةأوالآيةالمتضمنةالبداية	**الغاية**
١–"بل متّعت هؤلاء وآباءهم"	"حتّي جاءهم الحقّ..."(٢٩).
٢–"وإنهم ليصُدّونهم عن السبيل، ويحسبون..."(٣٧).	"حتّي إذا جاءنا قال:يا ليت بيني...القرين" (٣٨).
٣– "فذرهم يخوضوا ، ويلعبوا"	"حتّي يلاقوا يومهم"(٨٣).

وهنا تبدو وثاقة العلاقة التركيبية بين جانبي اثنين من الأمثلة ، بل إن الجانب الثاني في المثال (٢) يلزمه تقدير جملة في أوله ، تشير إلى معني الآية السابقة في المثال.[١] ومثل هذا مما نجدله نماذج كثيرة فيما مضي ، من أنماط العلاقات الدلالية.

١ نقدر : يصدونهم. و انظر الحذف.

٥-التماسك الصوتي

أعرض هنا لأحد الملامح البارزة في القرآن ، بعامّة ،ألا وهو استعماله الفواصل في نهاية آياته ؛ لتؤدي دورا موسيقيًّا يدفع إلى مزيد تنبّه وإقبال علي المعاني المتوالية في الجمل ، والآيات. ولئن كان ثمّة تشابه بين أثر كلٍّ من السجع والفاصلة – إلا أنها لتختلف عنه اختلافًا بيّنًا في سلاستها ، وتبعيتها للمعني ؛ بحيث يمكن أن يستغني عن تتابعها ؛ فتُغَيّر لأجل المعني. وهذا ما حدا بهم قديما أن يستعملوا مصطلح "الفاصلة" مرادًا به التماثل الصوتي في نهاية الآيات الكريمة ، بدلاً من "السجع" الذي كان يشيع في كلامهم ، وبخاصّة لدي الكهّان.

إن القرآن نزل بلغة العرب ؛ ليمثّل قمّة البلاغة والبيان ؛ فيكون بذلك معجزة تشهد بصدق من تنزّل عليه. وقد جاء أول السورة التي ندرسها ينطق بذلك. وهو ما يعني أنه يكون علي ما عهدت العرب من سنن كلامها ، وكيفيات بنائه. وهو ما نجده في القرآن ، غير أنه فارق مستوي هذا الكلام بسموق مستواه ، وتجاوزه طاقة البشر.

إذن تضمّن القرآن الفواصل في نهايات آياته ؛ لِمَا عَهِده العرب في أدبهم من احتوائه علي القافية أو السجع. غير أن القرآن ، وإن أتي بما يشبه هذين ، فإنه جاء بذلك غاية في الدّقّة ، والمناسبة التامّة للمعني ، والتطلّب القويّ للأذن والنفس.

يظهر الأثر القويّ للفواصل في السور المكّيّة ، وبخاصّة القصير منها. وسورة الزخرف – وإن كانت مكّيّة – ليست قصيرة الآيات ، وأن كان القليل منها كذلك. وعلي هذا ستكون الفواصل متباعدة رخيّة ؛ إذ تأتي نهاية الآية بعد ما يزيد علي عشر كلمات ؛ فلا يكون لوقع الفواصل فيها ما لوقع فواصل سورتي الصافّات والقمَر[١]. ولقد جاء هذا التباعد مناسبًا غاية المناسبة لطبيعة القضايا التي تناولتها السورة ، تلك التي تتطلّب حِجَاجًا ، وبَسْطًا للأدلة ، وهو ما يطول به الكلام

(١) وانظر : الإتقان في علوم القرآن ١٠٥/٢. و هو يقرر "أن أحسن السجع ما كان قصيرًا لدلالته علي قوة المنشيء. وأقله كلمتان ، نحو : "يأيها المدّثّر. قم فأنذر"... والطويل ما زاد عن العشر كغالب الآيات. وما بيتهما متوسط ، كآيات سورة القمر".

فلا تتوالى مقاطعه تواليا متقاربًا، كما هو شأن السورتين الأخريين اللتيْن ناسب ذلك محتواهما. علي أن هذا التباعد الغالب علي فواصل سورة الزخرف لا يلبث أن يفتقد حدّته. وما ذلك إلا لأن كل مجموعة من الآيات المتناولة لقضية من قضايا السورة ، أو لجانب منها ، يتضامّ بعضها إلى البعض الآخر ؛ ليكوّن وحدة متشابهة في النهايات الصوتية لآياتها. وسنجد اشتراك آيات هذه المجموعات لا في إحدى الحركات الطويلة وصامت بعده – علي ما هو كثير الوقوع في الفواصل[١]– بل في تماثل الصوت الصامت السابق للحركة الطويلة ، أو تقاربه ؛ بحيث لا يفصل بين مخرجه ومخرج مقابله في الآية السابقة ، أو التالية سوي مخرج واحد. وبذلك تقترب مجموعات فواصل الآيات من أن تكون آياتها قد اشتركت في ثلاثة أصوات ، مع تحقّق ذلك لبعضها بالفعل. ودرس هذا الجانب هنا يأخذ في الاعتبار الاهتمام بما توفره ظواهر النص الفونولوجية والصوتية من أوجه للتماسك.[٢]

انتهت الفواصل[٣] في سورة الزخرف نهايات أربعًا ، واحدة منها فريدة ، لم تتكرّر ، وهي في آخر الآية ٥٩ ؛ إذ اختُتمت بكلمة (إسرائيل) التي لم يتكرر المقطع الأخير منها /ئيل/ ، أو ما

(١) ذكر الأستاذ محمد الحسناوي في دراسته "الفاصلة في القرآن " ص ١٣٥أن الكثير من الآيات غلب التزام نهايته صوتي الواو والنون ، فالياء والنون ، أو الياء والميم

(٢) علم لغة النص ١٤٩.

(٣) المتتبع لحديث القدماء عن الفاصلة يجد أنها بين أن تكون أصواتًا متماثلة تشترك فيها أواخر الآيات ، أو كلمة في هذا الموضع، يتحقق فيها ذلك. ثم إنهم لربطهم بينها وبين السجع وبعض أنماط البديع – جاوزوا بها الكلمة ، كما نجد في المرصّع والمتماثل من الفواصل. فالأول تتفق فيه الفاصلتان وزنًا وتقفيةً ، ويكون ما في الأولي مقابلا لما في الثانية ، مثلما في قوله تعالى : "أن إلينا إيَابهم"(٢٥/الغاشية). ثمّ أن علينا حسابهم". أمّا المتماثل فتتفق فيه غير كلمة من الفاصلتين في الوزن دون التقفية. ومثال ذلك : "وآتيناهما الكتاب المستبين، وهديناهما الصراط المستقيم"(١١٨,١١٧ /الصافات). كما أن لارتباط كلمات الفاصلة بما تضمّنته الآية من الكلمات والمعاني صلة بتجاوز الفاصلة لحد الكلمة ، علي ما نجد في حديثهم عن "التمكين" للفاصلة ؛ علي ما في الآية (٨٧/ هود):"قالوا: يا شعيب ، أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك =

يقاربه ، كما حدث للمقطع نفسه في آخر كلمات آيات السورة في النهايات الثلاث الأخرى. وها أنا أعرض لفواصل السورة موزّعة علي هذه النهايات (أو أنماط الفواصل) ، ومقسّمةً علي قضايا السورة ، وجزئيّات تلك القضايا.

أنماط الفواصل

١- القضية الأولي : القرآن تذكرة للمخاطَبين المتغافلين عن الحقائق الكونية الظاهرة ، الداعية للإيمان (١-١٤) : عرضت تلك القضية لما يلي :

ا) القرآن : حقيقته ، ورسالته:

(ا)	(ب)	(ج)	(د)
حا/ميم/[1](١)	المـ/بين/(٢)	تعقلـ/ون/(٣)	حكـ/يم/ (٤)

افتتحت السورة بما ينبه إلى إعجاز القرآن ومنزلته عند الله، وكونه قد جاء لإرشاد الغافلين والمعاندين من المخاطبين وغيرهم. ولمّا تمّ ذلك كأن الانتقال إلى عنصر ثان من عناصر القول في هذه القضية؛ فأعيدت الفاصلة المبدوء بها الحديث لتمثل منتهاه، وينتقل إلى فاصلة مغايرة ، وإن كانت وردت من قبل.

ب) التذكير والإنذار سنّة ماضية :

مسر/فين/(٥)	يستهز/ئون/(٧)
الأوّ/لين/(٦)	

= لأنت الحليم الرشيد". فذكر الحلم والرشد؛ علي الترتيب ؛ ليناسب ذلك ما تقدّم من ذكر العبادة ثم الأموال. انظر : الإتقان ٢/ ٩٦ ، ١٠١ ،١٠٤.وهكذا تكون الفاصلة ما يشبه أن يكون مختتم الآية ؛ لأنها تنفصل بها الآية عن تاليتها ، وينتهي بها كلام ؛ ليبتدئ آخر. الإتقان ٢/٩٧.

(١) سأجعل المقطع الأخير من كلمة الفاصلة بين هاتين الشرطتين المائلتين ؛ لأن عليه مدار الحديث ؛ لتعلق الدرس هنا بالجانب الصوتي ، لا بعلاقة كلمة الفاصلة بسابقاتها. وكتبت (حم) حسبما تنطق لا كما جاء التوقيف بهيئة كتابتها ، وهو المناسب للدرس هنا.

الأوّ/لين/(٨)

ويُختَتم الحديث عن كون القرآن يذكّر المسرفين قبل إهلاكهم كما فُعل بأسلافهم ، بالفاصلة المبدوء بها. وجاءت كلمتها تكراراً للكلمة في نهاية الفاصلة قبل السابقة ؛ فكان ذلك ختامًا مناسبًا لتناول هذا العنصر من عناصر القول في القضية.

ج) إقرار الكافرين بإيجاد الله للكون ، ودلالة تيسيره سبحانه سبل الحياة فيه علي ضرورة المصير إليه : العـ/ليم/(٩) تهتـ/دون/(١٠)

تُخرَ/جون/(١١)

تَركـ/بون(١٢)

مُقرِ/نين/(١٣) لَمنقَل/بون/(١٤)

وبتناول الآيات لهذا المعني ، تتمّ عناصر القضية الأولي من قضايا السورة الرئيسة. وهنا نلحظ أنا قد عدنا إلى النمط الأول من أنماط الفاصلة ، ذلك الذي بدأت به السورة الكريمة؛ لننتقل منه إلى النمط الثالث ، الذي يظل متواترا طيلة تناول هذا العنصر ، عدا مرّة واحدة ، يتراجع فيها هذا التواتر ؛ ليظهر النمط الثاني. وهذا الظهور مناسب للآية لمخالفتها سابقتها وتاليتها لكونها تلزم المخاطبين ببعض مظاهر حَمْد الله علي نعمه. أمّا بقية الآيات فيمثل تتابع النمط الثالث آخرها تقريرًا قويًّا لإقرار المشركين بانفراده سبحانه بالخلق والإنعام ، وإلزامًا لهم بما ترتب علي اعترافهم بخلقه سبحانه السموات والأرض. ولئن كانت الفواصل كلها ذات نبر واضح ، أو قويّ ؛ لاحتوائها علي إحدى الحركتين الطويلتين (الواو والياء) – فإن تكرار أحد أنماطها وتواتره لهو الأكثر دلالة علي وضوح النبر وقوته. ولعل هذا التواتر يأتي بديلا لقصر الفواصل. ولقد زادت عدّة كلمات الآيات هنا عن عشر كلمات ، وهو ما يجعل الفواصل – كما سبق – تأتي في المرتبة الثالثة من حيث الأثر الصوتي. وقد تجاوز طول الآية الثالثة عشرة الخمس عشرة كلمة ؛ وهو ما يناسب انفرادها بفاصلة تعيدنا إلى النمط الغالب في (ب).

وهكذا يبدأ هذا العنصر هادئ النبر ليتوالى علوّه متمثلا في تتابع النمط الثالث من أنماط الفاصلة ، في السورة. علي أنه يتراجع ليعود بعدئذٍ إلى النمط نفسه ، ذلك الذي سنري أنه الغالب علي فواصل السورة.

ولاستعمال النمط الثالث من أنماط الفاصلة في العنصرين السابقين – ذلك الأثر نفسه من بلوغ الحديث قمته ؛ للعود إلى نمط سابق. وهو ما سنجده يتحقق في أربعة من عناصر تناول المعاني التي عالجتها السورة الكريمة.

٢- القضية الثانية : فساد ما عليه المشركون من معتقدات (١٥-٣٠)[١]. و عرضت لما يلي :

ا) دحْض الشِرك و ذرائعه :

مُ/بين/(١٥)

بالـ/بَنين/(١٦)

كـ/ظيم/(١٧)

مـ/يين/(١٨) يُسأَ/لون/(١٩)

يَخرُ/صون/(٢٠)

مستمسِـ/كون/(٢١)

مهتـ/دون/(٢٢)

مقتـ/دون/(٢٣)

كافـ/رون/(٢٤)

المكذّ/بين/(٢٥)

(١) جاءت آيتا ٢٩ ، ٣٠ هنا ضمن هذه القضية ، وهو علي خلاف ما سبق. لكن يجيز ذلك كون تقسيم الآيات حسب القضايا تقريبيًّا إلى حدّ ما ، كما أن هاتين الآيتين يمكن أن تكونا تعقيبا علي الفكرة السابقة ، وختامًا لما تناولته القضية الثانية ، وهو ما أخذت به هنا. كذا يمكن أن تكونا تقدمة للحديث عن موقف الكافرين من نبوته ، صلي الله عليه و سلّم. وهو ما عليه التقسيم السابق.

وهنا يبتدئ العنصر بالنمط الثاني لينتهي به بعد أن يعرّج – بعد قليل من البداية – علي النمط الأول ؛ ليمرّ مسرعًا علي الثاني ؛ ليعود إلى النمط الثالث ؛ فيتلبّث به ؛ ليكون الغالب عليه. ونلاحظ هنا غلبة الآيات الزائدة عدد كلماتها علي عشر كلمات. بل إن بعضها جاوز العشرين. ولقد مهّد قِصَر الآية (٢٤) للانتقال إلى تاليتها القصيرة أيضا ، وذات الفاصلة من النمط الثاني ، والذي به ينتهي هذا العنصر من عناصر القضية الثانية.

وهكذا نجد الفواصل هنا ، يغلب عليها الطول ؛ ويبدو أنا لم نظفر من أثرها الصوتي الواضح علي الأذن بما عدا حركتي الياء والواو المتلوّتين بالنون غالبًا ، أو بالميم. لكنّ ما في قصر الآيتين الأوليين ما يجعلهما من الفواصل المتوسطة ، ذات الوقع المؤثر علي النفس والأذن ، والمساعد في إفادة معني الاستنكار، الذي جاء الخبر والإنشاء فيهما لهذا الغرض. وتأتي الفاصلة الأخيرة لتعيدنا إلى هذه البداية ؛ فتربط مكونات العنصر ومعانيه ببعضها. وهي – إلى ذلك – تشير إلى هؤلاء الذين استنكرت قرينتاها في الأول ما افتروه علي الله. فهم كاذبون مكذّبون، كهؤلاء الذين حدثت عنهم الآية الأخيرة.

ولست في حاجة لأكرّر ما سبق من أن وجود النمط الثالث من أنماط الفواصل ، يمثل قمّة بلوغ الحديث منتهاه ، وتكراره الغالب علي السورة بمثابة تنبيه للمتلقي ، كما أنه يمثل واحدًا من الروابط القوية بين آيات السورة ، و أجزائها.

ب) الأولي بمتبعي الآباء اتباع إبراهيم الخليل :

تعبـ/دون/(٢٦)

سيهـ/دين/(٢٧)　　يرجـ/عون/(٢٨)

مـ/بين/(٢٩)　　كافـ/رون/(٣٠)

وإذا كانت الفكرة السابقة قد أشارت إلى تذرّع المشركين باتباع عقائد الآباء ، ثم أوضحت فساد ذلك ، وسوء مغبّته – فإن هذه الفكرة تعضّد ذلك ببيانها فشل هؤلاء المخاطَبين في اختيار

من يصح اتباعه من الآباء.[١] وقد كانت أولي الآيات طويلة تناسب تقرير موقف خليل الرحمن من مثل ما عليه المشركون. كما جاءت فاصلتها ممّا غلب علي آيات السورة أن تختم به. وهو مناسب للصدع بالتبرؤ من الشرك.

ثم يُتراجَع إلى الفاصلة من النوع الثاني ، بعد أن تنبه المخاطبون لأهمية الكلام الملقي ؛ فيحرصون علي تلقف هذه الجملة القصيرة التالية المثبتة للتمسك بالتوحيد وما يترتب عليه. وتعود الفاصلة إلى النمط الثالث ، وتزيد كلمات آيتها قليلا عن كلمات سابقتها ، لكن الفاصلة تظل من النوع المتوسط ؛ لأن كلمات الآية أقل من عشر. وكذا يكون الانتقال إلى الفاصلة الغالبة مناسبا لإشهار ما أودعه إبراهيم لدي ذريته من أمانة التوحيد الذي ضيعه هؤلاء المكّيّون.

ثم جاء تقرير إمهال الله لهم إلى أن جاءهم بالقرآن ، وما كان من مقابلتهم هذا بالكفر. وكان ذلك في الآيتين الأخيرتين ذواتي الفاصلتين المختلفتين. فالأولي من النوع الثاني ، والثانية من الثالث. وقد تقارب عدد كلماتهما[٢]، غير أن الأولي مثّلت نهاية الفاصلة المتوسطة ، وزادت عليها الثانية كلمة ؛ لتمثل بذلك إطنابا في التشنيع علي المشركين ، يضاف إليه مجيء آخرها في النمط الغالب من الفواصل بما له من دلالة علو النبرة.

وبذا يتناسب الانتقال بالفاصلة في هذا الجزء من السورة مع الانتقال بالكلام من معني إلى آخر ؛ للتمهيد لهذه المعاني، وإقرارها في الأذهان.

وهكذا نجد المزاوجة هنا بين النمطين الثاني والثالث ، مع غلبة هذا الأخير ، وميل الفواصل هنا إلى أن تكون من النوع الذي لا تجاوز كلماته العشر.

٣ – القضية الثالثة : توهّم الكافرين ارتباط الرسالة بالثراء والنفوذ (٣١–٥٦). وتناولت ما يلي :

---

(١) وإبراهيم – عليه السلام – أبو العرب المستعربة ؛ إذ هم أبناء ابنه إسماعيل ، عليه السلام. وانظر : نظم الدرر ١٧/ ٤١٤,٤١٧؛حيث يشير إلى مناسبة ذكر إبراهيم هنا.

(٢) آخذ في الاعتبار استقلال الكلمة في الكتابة ؛ فما صلح أن يكون كذلك عددته كلمة. و هو الأكثر مناسبة هنا من الأخذ باحتساب (المورفيم).

ا) تفنيد لمقترح للمشركين بشأن صاحب الرسالة :

ع/ظيم/(٣١) يجم/عون/(٣٢)

يظه/رون/(٣٣)

للمتّ/قين/(٣٥) يتّك/ئون/(٣٤)

تبدأ الفواصل هنا بالنمط الأول ؛ لتنتقل إلى الثالث ليستعمل مكرّرًا ، ثم تختم بالثاني.

فالبدء والختام متغايران ؛ ليناسب ذلك بداية تناول الفكرة ونهايتها. ولعل العودة إلى النمط الأول مع قلّة دورانه في السورة يعاضد إرادة الزراية برؤية المشركين الحاصرة للأحقّية بالنبوة والرسالة في شخصين رأوهما من العظمة بمكان. وهكذا تتواءم الفاصلة مع المعني المعجمي لكلمتها، بل مع سياق الآية نفسه. ولم تجاوز آية البداية العارضة لتصور المشركين للأمر الكلمات العشر إلا بكلمة ، ثم جاء الكَرّ عليه بآيتين طويلتين جدًّا – مع قصَر الثانية بالقياس إلى الأولي – وثالثة لم تتجاوز كلماتها سبع كلمات. ويناسب التدرّج في الطول البداية والنهاية لتفنيد رؤية المشركين لمقام الرسالة؛ إذ يكون الكلام أولا مطنَبًا فيه، ثم ينحو إلى الاختصار والتكثيف.

ثم ينتهي تناول الفكرة بآية طويلة ، تُختتَم بفاصلة من النوع الثاني. وقد ناسب ذلك الطول كونها تقرّر حقيقة ذهول الكافرين عن التقييم الصحيح للأمور. ويلاحظ أنها تضمّنت قمّة ما عدّدته سابقاتها ممّا لو شاء الله لجعله للكافرين : (وزخرفًا). ثمّ عقّبت عليه بما يشعر بهوانه : (وإن كلّ ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا).ولا بدّ أن يشعرنا ذكر (الدنيا) بضرورة ذكر مقابلها ، وهو (الآخرة) التي ستستدعي حتمًا ذكر كلمة الفاصلة : (المتقين).

وطول الآية بما تضمنته من الموازنة بين نظرة المشركين القاصرة ، وما رجَحَتها به من فضل الله الذي خصّ به المتقين – قد مهّد تمهيدً قويًّا لكلمة الفاصلة ؛ فجعلها من فواصل التمكين.

ومجيء فاصلة الآية من النمط الثاني مناسبٌ إرادة المغايرة بينها وبين فاصلتي عرض مقتَرح المشركين ، وتفنيده الذي يستدعي التميّز بعلو النبرة المتمثل في تتابع نمط الفاصلة. فإذا كانت الآيات الثلاث السابقة قد ظهر منها هَوَان كل مظاهر الغني والثراء علي الله ، وكأن في ذلك بالغ

الزراية بهذا المقترح – كان التحول إلى النمط الثاني من الفواصل ، والتالي لهذا النمط المتحوّل عنه في الشيوع في السورة – مناسبًا لتراجع حدة الخطاب ؛ لاجتذاب المخاطَبين إلى طريق هؤلاء المتقين.

ب) المشركون أولياؤهم الشياطين :

ق/رين/(٣٦)	مهت/دون/(٣٧)
الق/رين/(٣٨)	مشتر/كون/(٣٩)
م/بين/(٤٠)	منتق/مون/(٤١)
	مقتد/رون/(٤٢)

وهنا نجد المزاوجة بين نمطي الفاصلة الثاني والثالث ، مع غلبة الأخير. ويتضح بجلاء اختصاص الفاصلة الأولي بوصف حال المشركين في الدنيا والآخرة ، علي حين تختص الثانية بالتعقيب عليه. ويبلغ هذا التعقيب منتهاه بتهدّدهم في الآيتين الأخيرتين.

جاءت آيات الفاصلة الأولي طويلة ، قد جاوزت كلماتها الكلمات العشر بقليل ؛ وهو ما يناسب وظيفتها المشار إليها. واشتركت الآيتان الأولي والثالثة في كلمة الفاصلة ، مع مجيئها معرّفة في الثانية بـ (أل) العهدية. ولعل في هذا ما يقترب بالفاصلة من الفواصل المتقاربة ذات التأثير الصوتي الواضح. والأهمّ من ذلك تلك الملاءمة القوية بين الفاصلة وسياق الكلام. فالكافر حريص يوم القيامة علي العثور علي من أورده العذاب ، والتشفّي منه بأن يراه يصلاه مثله. وقد سجل القرآن ذلك في غير موضع.[١] وتكرار الكلمة يومئ إلى هذا المشهد. فلقد تنبه الكافر سريعًا إلى المتسبّب فيما آل إليه ، بعد أن أزال عنه هول الموقف غطاء الغفلة ؛ فقدح ذهنه ليحدّد هذا

(١) نجد ذلك واضحًا في قوله – تعالى – : "وقال الذين كفروا : ربّنا أرنا اللذين أضلانا من الجنّ والأنس ، نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين" (٢٩/ فصّلت). وقريب من ذلك ما في ٣٨ / الأعراف ، وهو ما تشير إليه محاجة الشيطان للكافرين والعصاة يوم القيامة ، كما جاء في ٢٢ / إبراهيم.

المتسبّب ؛ فظفِر به. وتأتي الآية الخامسة لتكون خلاصة لوصف حال الكافرين في الدنيا. وهي نتيجة لما سبقها ، وبخاصة ما اتّفقت معه في الفاصلة.(١)

ولم تتجاوز آيات الفاصلة الثالثة الكلمات العشر ، بل نقصت ثلاث منها عن العشر ، واشتملت الأخيرتان علي ستّ كلمات وسبع ، علي الترتيب. وهكذا جاءت الفواصل من النوع المتوسط، ومثّلته الأخيرتان بوضوح ، علي حين مثّلت الأوليان قمته ؛ وهو ما يناسب بداية التعقيب علي وصف حال المشركين ونهايته. وسبق أن تلك النهاية كانت تهديدًا ؛ فجاءت فاصلة آيتيها متقاربتين قويتي الوقع.

ج) القرآن ذكر للرسول ولقومه :

مستـ/قيم/(٤٣) تُسأَ/لون/(٤٤)

يُعبَـ/دون/(٤٥)

ويُبدَأ بفاصلة لينتهي بغيرها ،علي ما رأيناه غالبًا في السابق، وعلي ما سنري في فواصل آيات القضية الأخيرة.

وقد أعادتنا البداية إلى الفاصلة الأولي ، القليلة الورود. وهي فاصلة الآية الأولي. وقد قيل إنها اسم السورة ، أو إشارة إلى ما تتكون منه آيات القرآن. والآية تأمر بالتمسك به ؛ فناسب أن تعود بنا إلى هذه الفاصلة الأولي : "حم". وقد تغيرت الفاصلة لتغير موضوع الخطاب ؛ ليتوجَّه به إلى النبي. والتغير يلفت إلى محتوي الآية. وقِصرها ، ومبناها – وبخاصة جزؤها الثاني – ينضمّان إلى انفرادها هنا لتقوية وظيفتها في تأكيد المعني.

ثم تأتي الفاصلتان الأخريان لتكونا من النمط الثالث. وقد عرفنا قيمة تواتره في السورة ، وهو ما يناسب كون الآيتين هنا تعقيبا علي سابقتهما. ولئن جاءت أولاهما من الفواصل المتوسطة؛ فإن

(١) لعل من نافلة القول أن الآية لم تخلص لهذا الوصف وحده. بل جاء في سياق التسرية عن النبي – صلي الله عليه وسلم – لئلاّ يكلف نفسه فوق طاقتها في الحرص علي هداية المعرضين.

الأخرى تجاوزت ذلك. ويأتي ذلك في غاية المناسبة من حيث التدرج في الطول ، ومحتوي كلتيهما.

د) تشابه موقف فرعون وملئه من موسي مع موقف الكفار من النبي :

العالـ/مين/(٤٦) يضحـ/كون/(٤٧)

يرجـ/عون/(٤٨)

لَمهـ/تدون/(٤٩)

ينكُ/ثون/(٥٠)

تُبْصـ/رون/(٥١)

يُبـ/بن/(٥٢)

مقتـ/رنين/(٥٣)

فاسـ/قين/(٥٤)

أجمـ/عين/(٥٥)

للآخـ/رين/(٥٦)

وهذا هو الموضع الرابع الذي تتشابه فيه فاصلتا البداية والنهاية لتناول فكرة واحدة ، أو عنصر من عناصر قضايا السورة.

وقد غلب هنا مجيء النمط الثاني من الفاصلة. وهو مناسب لمعاني آياته. ولقد أخبر بعضها بذهاب موسي بالآيات إلى فرعون وملئه ، وما كان من سخريتهم منه. كما جاء البعض الآخر محمّلا فرعون وزر إهلاك قومه ، ومزريًا بهم لموافقته في كفره ؛ ليُعقب ذلك بتقرير ما كان من نهايتهم الأليمة، التي هو أمثولة لغيرهم.

وكلا الغرضين يناسبه هذا النمط من أنماط الفاصلة. فنسبة شيوعها في السورة تجعلها ذات وقع متوسط علي النفس والأذن.

وجاء التباين في طول آيات الغرضين مميّزًا لكليهما داخل النمط الذي جمع بينهما. فطول آيات الغرض الأول يناسب تقرير تبليغ موسي رسالة ربه إلى هؤلاء القوم ، وإيراد استخفاف فرعون بموسي ، وما اقترح أن يكون عليه ؛ مشبهٌ صنيع كفار قريش. علي أن آيات الغرض الثاني قد جاءت قصيرة، متقاربة الوقع ليكون هذا تعقيبًا بذكر ما آل إليه أمر هؤلاء. ومن قبل جاءت فاصلة الآية ٢٥ من هذا النمط. وقد أشارت الآية – بإجمال – إلى إهلاك المكذبين من الأمم السابقة. ومن هنا كان مجيء هذه الآيات الثلاث عن نهاية فرعون وقومه في هذا النمط من أنماط الفاصلة – ربطا بين عام وخاصّ. ويشعر استعمال هذه الفاصلة بالإعراض عن المكذبين ، وهوان أمرهم.

وجاء النمط الثالث من أنماط الفاصلة هنا مناسبًا للرسالة البيانية التي جاءت الآيات صادعة بها. وهي كلها عالية النبرة، وإن تفاوتت لتفاوت الآيات في الطول. فجاء أولها قصيرًا ؛ للفت الانتباه إلى حماقة موقف القوم من موسي ، عليه السلام. وجاءت الثانية والثالثة طويلتين لتناسبا تقرير ابتلاء القوم بالعذاب ، وضعفهم أمامه. ثم تأتي الآية الرابعة قصيرة ؛ لتمثل فاصلة من النوع المتوسط ؛ فيعِين علي التعجيب من موقف القوم بعد حِنثهم فيما وعدوا به. وهكذا تتشابه فاصلتا الآيتين ٤٧ ،٥٠ في القيام بهذه الوظيفة. وتقع الفاصلة الأخيرة من هذا النمط في آية بلغت تسع عشرة كلمة تقرّر تهجم فرعون علي موسي – عليه السلام – وتباهيه بما هو عليه ممّا ليس لموسي.

وطول الآية مناسب لعرض محتواها. ومجيئها في هذا النمط من الفواصل يتلاءم مع مجيء فواصل معظم الآيات التي فنّدت مقترح المشركين بشأن الحال التي رأوا أن يكون عليها الرسول. وانتقل إلى النمط الثاني ؛ لتجاوز فرعون الموازنة إلى المغالطة[1] و اقتراح ما أغنت عنه الآيات التي شاهدوها.

٤– القضية الرابعة : عيسي بن مريم عبد الله و رسوله(٥٧– ٦٥) :

يَصِدّون/(٥٧)

(١) وانظر ما في "نظم الدرر" ١٧ / ٤٤٨ عن أن الله قد برّأ موسي – عليه السلام – مما عيّره به.

خصِ/مون/(٥٨)

إسرا/ئيل/(٥٩) يَخلُ/فون/(٦٠)

مست/قيم/(٦١)

مـ/بين/(٦٢) أطيـ/عون/(٦٣)

مست/قيم/(٦٤)

أ/ليم/ (٦٥)

تجمع هذه القضية أنماط الفاصلة الأربعة جميعًا ، وتنفرد بهذا المثال الوحيد للنمط الرابع.

وعاد الاختلاف بين نمطي البدء والختام للظهور هنا ؛ ليكون بمثابة الحدّ الفاصل بين المقطع من السورة وغيره ، باعتبار وحدة ما يتناوله من قضاياها أو أفكارها.

ويكاد يعادل عدد الفواصل من النمط الثالث عدد الفواصل من الأنماط الباقية ، التي انفرد اثنان منها بمثال واحد ، وكان للنمط الأول ثلاثة أمثلة.

والبدء بهذا النمط ، وتتابع أمثلته مناسب لإرادة التشنيع علي القرشيين في نظرتهم لعيسي ، وتشبيه شركهم بشرك النصارى به. وبدأت الفواصل متوسطة ؛ لتطول وهي تعرض حجة المشركين المتمثلة في قياسهم معبوداتهم علي عبادة هؤلاء لعيسي ؛ لتُجمِل في بيان حقيقة موقفهم. وبعد أن تبين آية الفاصلة المنفردة حقيقة أمر عيسي – عليه السلام – في طول غير ملحوظ، تعود الفاصلة لتكون من النمط الغالب هنا ، ولتكون من النوع المتوسط الطول لتناسب الصدع بمحتوي آيتها، وهو قدرة الله أن يحدث في الخلق ما هو أعظم من خلْق عيسي.

ثم تتراجع الفاصلة لتأتي بالنمط الأول لتحوّل الخطاب من الحديث عن موقف الكافرين من عيسي ؛ ليكون توجيهًا للنبي إلى ما يقوله لهؤلاء.و جاء ذلك في آية طويلة ناسبت المحتوي، وكذا قلّة دوران الفاصلة في السورة. ثم تلتها آية قصيرة ، خُتِمت بفاصلة من النوع الثاني لتناسب التحذير الذي تضمّنته.

وقد ناسب قصر الآية الانتقال إلى النمط الغالب من فواصل السورة في آخر آية منه في تناول هذه القضية. وهنا يعود الحديث إلى بيان حقيقة ما جاء به عيسي قومه من الهداية وتقوي الله. وقد جاءت هذه الآية الأخيرة ؛ لتجلّي ذلك بطولها الملحوظ.

ويُختَتم تناول القضية بفاصلتين من النمط الأول.

وتكون كلمة الفاصلة الأولي هي التي جاءت ضمن ما وُجّه النبي – صلي الله عليه وسلم – إلى قوله. وهكذا ندرك حكمة التكرار ، بل تكرّر مع الكلمة موصوفها ؛ فكان مع ما سبقه ممّا مهّد للفاصلة ، ومكّن لها.

وتنهي الفاصلة الأخيرة تناول القضية بآيتها الطويلة قليلا عن طول المتوسط من الفواصل فيناسب ذلك تقرير اختلاف الأحزاب في أمر عيسي.

٥ – القضية الخامسة : وجوب العمل للآخرة للنجاة من عذابها ، والفوز بنعيمها (٦٦– ٧٨) :

يشعـ/رون/(٦٦)

المتـ/قين/(٦٧)

تحز/نون/(٦٨)

مسلـ/مين/(٦٩)

تُحبَـ/رون/(٧٠)

خالـ/دون/(٧١)

تعمـ/لون/(٧٢)

تأكـ/لون/(٧٣)

خالـ/دون/(٧٤)

مُبْلِـ/سون/(٧٥)

الظالـ/مين/(٧٦)

ماكـ/ثون/(٧٧)

كار/هون/(٧٨)

مُبرِ/مون/(٧٩)

يكت/بون/(٨٠)

وتغلب هنا الفاصلة من النمط الثالث ؛ لمناسبتها ما تبرزه الآيات هنا من إشهار ما سيكون عليه حال الناس يوم القيامة من الاختلاف البيّن ، والتباعد الكبير بين أصحاب درجات الجِنان ، وأهل النيران.

بدأت الآية الأولي مخوّفة بمفاجأة الساعة ، بما يترتب عليها من الجزاء المناسب للمشركين. وناسب طولها تقرير ذلك.

وتأتي الآية التالية قصيرة ، فاصلتها من النمط الثاني ؛ لتقرّر وقوع الاختلاف والعداوة بين أخلاّء الدنيا عدا المتقين يوم القيامة. فتكون وجازة الآية مناسبة لأداء المعني ، ومؤكّدة له. كما يكون التحول إلى النمط الثاني منبّهًا إليه ، ودافعًا للمعرضين والغافلين إلى أن يثوبوا إلى الرشد ؛ للأثر الذي لخفّة وقع الفاصلة وهدوئها ، النابعين من انخفاض نسبة ورودها في السورة بالمقارنة بالفاصلة قبلها.

وبعدئذ يعود لنا نمط الفاصلة بالواو والنون ؛ لتشير الآية المختتمة بهما إلى ما سيكون عليه المتقون من الأمن والهناءة. ولقد جاءت من الفواصل متوسطة الطول ، وأن تجاوزت في ذلك سابقتها ؛ فناسب ذلك نمَطها. و لقد ناسب استعمال هذا النمط بعد سابقه إبراز علو قدر المتقين.

ثمّ نعود إلى النمط الثاني للغرض نفسه الذي سبق. غير أن وجازة الآية ، وبنيتها اللغوية يؤكّدان هذا الغرض بأكثر مما في مثيلتها السابقة.

و تعود الفاصلة سيرتها الأولي ؛ فتستمر في النمط الثالث المناسب لما تتناوله الآيات هنا ، كما سبق تقريره. وتبدأ هذا بفاصلة متوسطة تؤكد مثيلتها السابقة ؛ بما تضيفه من معني جديد مترتب عليه. وتأتي الآية التالية طويلة تفصل ما أجملته سابقتها ، أو تبين سببه. وتعود الآيات إلى القِصَر ؛ لتكون بقية الفواصل من النوع المتوسط ؛ فيناسب ذلك طبيعة النمط الثالث الغالب

علي فواصل السورة. ويستثني من ذلك الآية الأخيرة ؛ إذ طالت ليناسب ذلك زرايتها بتوهم المشركين القدرة علي الاستخفاء بمكرهم ، وتوعدها لهم.

وقد ناسب قَصَر الآيات توالي وقع نهايتها ؛ ليكون ذلك منبّهًا إلى اختلاف حال الفريقين في الآخرة ، بخاصة في الآيات من ٧٢ إلى ٧٦. ولقد جاءت هذه الأخيرة قاطعة استمرار مسيرة الفواصل علي النهج الغالب في السورة ، ولتكون من النمط الثاني لمثل ما أشرنا إليه – سابقًا – من إفساح المجال أمام المكذبين للارعواء عن غيّهم ، والتنبه إلى غفلتهم.

٦- القضية السادسة : تهديد للمشركين ، وتحول عنهم وإعراض ، مع الإشارة إلى أن الغلَبة للإسلام (٧٩ – ٨٩) :

العاب/دين/(٨١)	يصـ/فون/(٨٢)
	يوعَ/دون/(٨٣)
العـ/ليم/(٨٤)	تُرْجَ/عون/(٨٥)
	يَعلَ/مون/(٨٦)
	يُؤفَ/كون/(٨٧)
	يؤمـ/نون/(٨٨)
	يعلـ/مون/(٨٩)

وهنا نري أنماط الفواصل الثلاثة ، وإن اقتُصر علي مثال واحد للأول والثاني.

وقد بُدِئ بالنمط الثاني لما تقرّر من أنه يُتَراجَع إليه ؛ لدعوة المعرضين المكذّبين إلى مراجعة موقفهم ، والتفكر فيما اختاروا لأنفسهم من معتقَد و طَريق. ومحاجّة الآية بما ينفي الولد عن الله – تعالى – هي ممّا يراد به إزالة الغشاوة عن هؤلاء.

وبعد أن تعلو نبرة الفاصلة في موضعيها التاليين ، بما يناسب إعلان تنزيهه – سبحانه – وتهدّد المخاطَبين تتراجع إلى النمط الأول. وهو إلى كونه أكثر إسهامًا في إتاحة الفرصة أمامهم

للارعواء ، والتحوّل ؛ لانخفاض تأثير الفاصلة الصوتي – يناسب التحوّل عن الحديث عنهم إلى تقرير مضمون الآية ، وهو أنه سبحانه الحكيم العليم المعبود في السموات والأرض.

ويناسب طول الآيتين التاليتين طول سابقتهما. فهي تشترك جميعًا في التعبير عن معني واحد. وذلك المعني هو : انفراده سبحانه باستحقاق العبادة ؛ لكونه مالك الكون ، وإليه المرجع وقتما يشاء، وليس لأحد أن يشفع عنده إلا من شهد بذلك.

وكان النمط الثالث قد عاد لغلبة الظهور آخر هاتين الآيتين. ولئن ضعف تأثير الوقع الصوتي لطول الآيتين – وبخاصة أولاهما – فإن القِصَر المتدرّج للآيات الثلاث الأخيرة من السورة – لَيزيد من تأثير هذا الوقع. وهو مناسب لصَدْعها بما يثبت عناد المخاطبين ، والدعوة إلى الإعراض عنهم.

وهكذا رأينا كيف تترابط أجزاء السورة عن طريق الفواصل بالطرق التالية :

١– كانت الفاصلة من النمط الثالث رابطا قويًّا بين أجزاء السورة ، أو قضاياها ، وعناصر هذه القضايا. وتلتها في القيام بهذا الدور الفاصلة من النمط الثاني. ويقل ظهورها في بعض الأجزاء حتي ليكاد يقتصر علي واحدة فيها. و لا يجاوز عدد الفواصل من النمط الأول العشر ، تتوزع ، في تفاوت ملحوظ ، علي قضايا السورة ، أو عناصر تلك القضايا ، وإن خلَت بعض العناصر منها تمامًا. ويمثل هذا النمط خيطا رفيعًا ينتظم معظم القضايا ، كما تخلو القضية الخامسة من هذا النمط ؛ لكون ما تناولته يلزم ممّا سبق. أضف إلى ذلك اشتمالها علي ثاني أكبر عدد من النمط الثاني.

٢– غلبت المغايرة بين فاصلتي البدء والختام ؛ ممّا يمثل فاصلا بين وحدات تناول المعاني التي عالجتها السورة الكريمة.

٣ – يتناسب الانتقال من الفاصلة إلى غيرها مع مضمون الآيات ، وطولها ، وسياقها.

٦– علاقة النصّ بالعالم الخارجي :

يتحقق ذلك من خلال ما يلي :

١- حديثه عن المشركين ومعتقداتهم؛ للرد عليها ، وإبطالها. ويبرز من بينها مقترَحهم بشأن الحال التي رأوا أنه ينبغي أن يكون الرسول عليها.

٢- ويبرز أيضًا في هذا السياق تشبيههم عبادتهم لآلهتهم بعبادة النصاري لعيسي. وقد رُوِي أن عبد الله بن الزِّبَعْرَي كان قد ارتأي ذلك الرأي ، زاعمًا للمشركين أن في القول به استدراكًا علي قوله تعالى : "إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَب جَهنّم" ؛ إذ كيف يكون عيسي رسول الله ، ويصير مع مَن عَبَده إلى هذه النهاية؟ وما دَرَي أنها مغالطة منه ، وجهل.

٣- إشارة السورة إلى الطلب من النبي – صلي الله عليه وسلّم – ليلة الإسراء[١] أن يسأل الأنبياء عمّا أرسلوا به إلى أقوامهم.

٤- إخبار النبي – صلّي الله عليه و سلم – أن الله تعالى لابدّ منتصرٌ له في حياته ، أو بعد وفاته.

وقد قيل إن في ذلك إشارة إلى ما سيكون يوم بدر. وقيل أن الله – تعالى – قد أراه ما سيكون بين المسلمين من الاختلاف بعد وفاته ؛ فلم يُرَ بعد ذلك إلا منقبضًا ممّا رأي. و قيل إن الله طوَي ذلك عنه ؛ فلم يُرِه في أمّته حالَ حياته إلا ما يُحبّ.

(١) تذكر ذلك بعض الآراء في تفسير الآية :"واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبَدون؟" يذهب البقاعي إلى أن المراد أن تُسأَل الأمم ، وذكر الرسل بدلا منهم. واستدل بمجيء (مِن) قبل الظرف. نظم الدرر ٤٣٧/١٧.وانظر : معاني القرآن ٣٤/٣ واختار الزجاج كون المراد سؤال الأمم، علي أنه علي جهة التقرير ، كما في مثل قوله في الآية ٨٧: "و لئن سألتهم : من خلقهم لَيقولُنّ : الله". و أورد الزجاج وجهًا ثالثًا للخطاب، وهو أن يكون خطابًا للأمة لا للنبي وحده ، علي ما في قوله : "يأيها النبي إذا طلّقتم النساء". معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣١٥/٤.

٥ – قيل إن الآية : "أَمْ أبرَموا أمرًا فإنا مُبرِمون" نزلت في تدبيرهم المكر بالنبي – صلي الله عليه وسلم – في دار الندوة ؛ لقتله بأيدي رجال القبائل ؛ فقتلهم الله في بدر[١].

٦ – الإشارة في آخر السورة إلى دعاء الرسول – صلي الله عليه وسلم – ربه شاكيًا عدم إيمان قومه.

كل هذا يدلنا علي كون آيات السورة الكريمة متناسبة تناسبًا تامًّا مع حال من تخاطبهم ، ومع زمن نزولها ؛ إذ هي مكية ، تحاجّ المشركين ، وتفنّد عقائدهم الفاسدة. وهي أيضا تثبّت النبي والمؤمنين معه بذلك. وقد نزل القرآن منجّمًا لتوافق آياته الحوادث المتجدّدة ومسيرة الدعوة الإسلامية. وهكذا تكون الآيات الكريمة مصوّرة لكل ذلك ، مجيبة عن التساؤلات ، ومبيّنة للحقائق في الوقت الذي يتطلّب ذلك. ولعل ذك يبرز واضحًا في كل ما سبق.

إن اهتمام العلماء بأسباب النزول ، وزمنه يشهد بفطنتهم إلى لزوم المناسبة بين العبارة اللغوية أو النصّ ، أيًّا كان طوله ، والبيئة ، أو الزمن اللذين قيل أيٌّ منهما فيه. وهو يشبه اهتمام اللغويّين بما يسمّونه المسرح اللغوي.

إن أسباب النزول لا تمنع دخول الأحداث ، أو الأحوال المشابهة ، والمتجدّدة في كل زمن دائرة مثيلاتها عند تنزّل آيات الكتاب العزيز ؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. علي أنه يظل يسترشد بتلك الأسباب ؛ لكيلا يُتوسَّع في التعميم.

نتائج البحث

١- تناولت سورة الزخرف أوهام مشركي مكة العقدية بالتفنيد والإبطال. وكان ذلك من خلال ستّ من القضايا توزعت بينها آيات السورة الكريمة. وقد كانت كل واحدة منها مسلمة إلى تاليتها ، ممهّدة لها غاية التمهيد.

(١) الفرطبي ٨/٤٢٤.

٢- كانت السورة – شأنها في ذلك شأن القرآن كله – مرتبطة غاية الارتباط بالأحداث والظروف التي كانت إبّأن تنزلها ؛ فجاءت آياتها ترد علي المشركين ، وتشير إلى فعالهم ، ومؤامراتهم ؛ لتثبت النبي والمؤمنين.

٣- يمثل التماسك النحوي ركنا رئيسا من أركان التماسك النصي؛ وذلك لمراعاة النحو عناصر متعددة ، تشمل جوانب متعددة من اللغة. ومن هنا كان البدء بدراسة مظاهره ؛ لبيان آثار عناصرها في تماسك بناء السورة ، أو إن شئنا في قوّته.

٤- يمثل عود الضمير ، أو الإحالة به ، وكذا استعمال الواو رابطة بين المفردات ، والجمل – وسيلتين ، كثر التعويل عليهما في الربط بين كلمات السورة ، وتراكيبها ، وآياتها. وتأتي بعد ذلك وسائل الإحالة و الربط الأخري.

٥- في الحذف يستغني البناء اللغوي الظاهر عمّا حدث التخفف من ذكره ؛ وذلك بظهور سطح هذا البناء أكثر اكتمالا ، وأقوي دلالة بدون المحذوف.

٦- يأتي المستَبدَل دائمًا موائمًا للسياق ، غاية في المناسبة لموضعه ، وذلك فيما يتصل بمواضع تشابه بعض تراكيب السورة بغيرها في بعض السور الأخري. أمّا فيما يتصل باختلاف القراءات في السورة، فإن ذلك جاء متناسبًا مع تعدّد احتمالات السياق والمعني.

٧- كان لتكرار بعض الوحدات المعجمية ، في صور مختلفة ، أبلغ الأثر في إحداث الترابط القوي داخل الجمل ، وفيما بين الآيات ، وقضايا السورة ، وأجزائها. هذا فضلا عمّا كان لهذه الوحدات من المناسبة السياقية ، والأثر الدلالي.

٨- تنوعت العلاقات الدلالية بين الجمل ، والعبارات ، والآيات في السورة. وكانت علاقة السبب والنتيجة أكثرها تردّدًا. وهذا مناسب في خطاب المسرفين ؛ إذ هذه العلاقة ترتب الأثر علي مسبّبه. والأمر نفسه نجده في علاقة التعليل ، وإن أتت في المرتبة الثالثة.

٩- ناسب أيضا أن يكثر استعمال علاقة التأكيد بين جمل السورة وآياتها ؛ إذ جاءت هذه العلاقة في المرتبة الثانية. وهي تتيح للنص الكريم أداء رسالته الإبلاغية والتأثيرية إلى

المخاطبين، علي الوجه الأكمل ، حيث يُبسَط القول ، ويُتَوَسّع فيه. والشيء نفسه يصدق علي كثرة مرات استعمال علاقة التفصيل بعد الإجمال.

١٠- مثّلت الفاصلة ، في نهاية الآيات ، وسيلة للتماسك الصوتي ، علي مستوي جزئيّات القضايا الستّ ، التي عالجتها السورة. لقد انفصلت كل واحدة من هذه الجزئيات عن أختها بفاصلة مغايرة ، تنتهي بها ، أو تبدأ بها التالية. وهكذا يكون للفاصلة وظيفة الربط بين آيات الجزئيّة من جزئيات القضايا ، وبخاصة إذا غلب التماثل بين الفواصل. ولقد كان للفاصلة الدور نفسه علي مستوي السورة بأكملها، حيث تردّدت ثلاثة من أنماطها في أواخر آياتها ، بتفاوت في نسب هذا التردد. وهكذا كان أحدها يمثل خيطًا رفيعًا ، تُسلِّك فيه قضايا السورة ، ويربط بعضها ببعض ، مهما تباعدت، علي اتساع مساحة النصّ. وقد كان ثمّة اثنان هما الأكثر تردّدا ؛ ليقوما بهذا الدور بوضوح.

١١- لا يمكننا أن نغفل أثر توإلى الفواصل المتماثلة ، وبخاصة في الآيات القصيرة ، في تصوير المعني ، وتأكيده. ولتغيّر نمط الفاصلة ، والتفاوت في طول الآية صلة وثيقة بالمعني ، والإبانة عنه.

١٢- تشير نهاية السورة إلى بدايتها. ويتضح ذلك بطلبها إلى النبي أن يعرض عن الخائضين اللاعبين ، كما تختتم بتكرار الطلب إليه بأن يصفح عنهم. وكانت قد بدأت بالإشارة إلى إسرافهم ، و أنه لن يؤدي إلى الإعراض عن تذكيرهم. وهكذا يتضح اصطحاب السورة غرض إرادتها تذكير المعرضين المعاندين ، علي مدي آياتها. فلمّا انتهت من هذا التذكير قرّرت أنهم باقون علي ماهم عليه ؛ فدعت إلى الإعراض عنهم. وهذا ملمح يظهر السورة الكريمة نصًّا واحدًا ، نِيط به أداء رسالة محدّدة.

مصادر البحث

أولاً : القرآن الكريم.

ثانيا : الكتب التالية :

– إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، للبنّا الدمياطي، نشرة الشيخ أنس مهرة ، ط. أولي ١٩٩٨، دار الكتب العلمية، بيروت.

– الإتقان في علوم القرآن،للسيوطي،المكتبة الثقافية ،بيروت١٩٧٣ .

– أثر النحاة في البحث البلاغي ، للدكتور عبد القادر حسين ، ط. ثانية ١٩٨٦، دار قطري بن الفجاءة ، الدوحة ، قطر.

– إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم،لأبي السعود العمادي تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، مكتبة الرياض الحديثة بالرياض.

– البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي بتحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، وآخرين. ط. أولي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٣.

– البيان في روائع القرآن ،للدكتور تمام حسان.عالم الكتب ١٩٩٣.

– البيان في غريب إعراب القرآن،لابن الأنباري ، دراسة و تحقيق الدكتور جودة مبروك محمد ، مكتبة الآداب ، ط٢ ، ٢٠١٠.

– تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة ، تحيق السيد أحمد صقر.

– التبيان في إعراب القرآن ، لأبي البقاء العكبري ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط. الحلبي ١٩٧٦.

– الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، تحقيق الدكتور محمد محمد إبراهيم الحفناوي ، دار الحديث بالقاهرة ٢٠٠٢.

– الحجّة للقراء السبعة ، لأبي علي الفارسي ، تحقيق بدر الدين قهوجي ، وأحمد يوسف الدقاق. دار المأمون للتراث ، دمشق.

– الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون،للسمين الحلبي ، تحقيق أحمد محمد الخراط ، دار القلم – دمشق.

– علم لغة النص ، للدكتور سعيد حسن بحيري ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ١٩٩٧ .

– معاني القرآن وإعرابه ، للزجّاج ، بتحقيق الدكتور عبد الجليل شلبي ، دار الحديث بالقاهرة ٢٠٠٤.

– معاني القرآن و إعرابه، للنحاس.(موقع مكتبة مشكاة الإسلامية).

– معاني القرآن الكريم ، للنحاس ، تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني. ط. أولي ١٩٨٨.

– معاني القرآن ، للفرّاء ، تحقيق الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، ومراجعة الأستاذ علي النجدي ناصف ، طبع دار السرور.

– مغني اللبيب ، لابن هشام. طبعة عيسى البابي الحلبي.

– مفتاح العلوم للسكاكي ، ط. أولي ، المطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم بمصر ، ١٣١٧هـ.

– مفاتيح الغيب، للفخر الرازي،دار الفكر للطباعة و النشر،بيروت ، ط. أولي ، ١٩٨١.

– النحو الوافي ، للأستاذ عباس حسن ، الجزء الثالث ط.سادسة، دار المعارف ١٩٨١.

– النشر في القراءات العشر ، لابن الجزري ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

– النص والخطاب والإجراء،روبرت دي بوجراند ، ترجمة الدكتور تمام حسان ، ط. أولي ١٩٩٨.

– نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية ، للدكتور مصطفي حميدة ، الشركة المصرية العالمية للنشر ،لونجمان ١٩٩٧.

– نظم الدرر في تناسب الآيات و السور ، للبقاعي ، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.